

## الفصل الأول

### المغرب والأندلس من الفتح حتى العصر المرابطي

كان لفتح بلاد الشام على يد العرب المسلمين ثم اتخاذ هذه البلاد مقرا للخلافة الأموية ابعاد الأثار على حركة انتشار الاسلام عالميا فالاسرة الأموية كانت تعرف بلاد الشام من قبل ، وتدرك أهمية سواحلها المتوسطية وموقعها البري الفريد الذي مكنها من الاتصال بأوروبا الشرقية عبر اسية الصغرى وبأفريقية عبر مصر وبالهضبة الايرانية وخراسان وبلاد المشرق الأقصى عبر العراق وبأرمينية واذربيجان وعالم بحر الخزر وكذلك البحر الأسود مع اجزاء من أوروبا الشرقية عبر الجزيرة .

وكان سكان سواحل الشام لعصور ما قبل الاسلام قد وصلوا عبر المتوسط الى حيث وصلت الفتوحات فيما بعد ، كما ان النسطورية والسريان كانوا قد وصلوا شرقا الى حيث وصلت الفتوحات العربية ايضا فيما بعد ، وكأنني بأهل الشام الاوائل قد قاموا بحكم تواصل حلقات أحداث التاريخ بالتمهيد لنجاح حركة الفتوحات العربية ، في تقبل سكان البلاد المفتوحة لدعوة التوحيد الجديدة ، فالفارق الأساسي بين حركة الفتوحات العربية وغيرها من أعمال التوسع العسكري لمختلف الشعوب عبر العصور ، هو في تحول سكان البلاد التي عرفها أهل الشام قبل الاسلام الى الاسلام (١) .

ولاتعني الآن مسألة الفتوحات العربية في اسية بل الذي يهمنا هو المواجهة العربية الأوروبية ، وبالتحديد المواجهة مع الأجزاء الغربية من أوروبا ، ذلك أنه سبق لنا الحديث في الجزء الأول من كتاب المدخل عن العلاقات مع أوروبا الشرقية ممثلة بالامبراطورية البيزنطية قبيل قيام ما يعرف باسم الحروب الصليبية ، وسترد

إشارات كثيرة الى استمرار هذه العلاقات في الجزء الثالث المقبل ، كما أن مختلف النصوص فيها مواد غنية عن هذا الموضوع مع إشارات مفيدة للعلاقات مع الكرج (جورجيا) حيث والحروب الصليبية مشتتة بأرض الشام كان الصراع الصليبي مع الكرج على أشده حاملا الألوان نفسها والسمات ، وكان له انعكاساته المؤثرة على سمات بلاد الشام ، فهذا الصراع كان وراء قيام الحكم الأيوبي في بلاد الشام .

وتمت المواجهات بين العرب وأوروبا الغربية في الأراضي المطلة على حوض البحر المتوسط وعلى مياه هذا البحر وفي سبيل التحكم به والسيطرة عليه وعلى جزره ، ومما يلفت الانتباه هو أن معاوية ابن أبي سفيان اهتم بالبحر المتوسط ونشط فيه منذ أن كان واليا أيام حكم الخليفة الراشدي عثمان بن عفان (٢) ، كما أن المتفحص بعمق لحركة الفتوحات في العصر الأموي يرى بكل وضوح وجود خطة استهدفت السيطرة بشكل كامل على هذا البحر ، فبعد اكمال فتح المغرب تم فتح الأندلس والسيطرة الكاملة على واحد من منفذ البحر المتوسط ، وأعقب هذا محاولة فتح القسطنطينية والسيطرة على المنفذ الثاني .

وانجز العرب فتح بلدان المغرب العربي بعمليات برية استهدفت أولا وقبل كل شيء السيطرة على سواحل المتوسط ، ولهذا شأبها بعض المناوشات والمعارك البحرية ، وبفضل البحرية جازت الجيوش المسلمة الى الأندلس وهكذا لم يكثف العرب بتطويق بلدان أوروبا الغربية ، بل غزوها فافتتحوها شبه الجزيرة الايبيرية ، ومن ثم جاهدوا في سبيل فتح فرنسا وسواها ، وظل النشاط العسكري العربي في أوروبا كبيرا جدا حتى ما بعد انتهاء القرن العاشر للميلاد ، حيث تغيرت الأحوال في القرن الحادي عشر بظهور النورمان وبتمزق الأندلس واشتداد حركة الاستغلاب الصليبية فيها ، ومع نهاية هذا القرن تحركت الحشود الهائلة من سكان أوروبا الغربية تريد بلاد الشام ، وهو ما عرف باسم الحروب

الصليبية ، لهذا هناك حاجة لدراسة ما شهدته ساحات المغرب والأندلس وجزر المتوسط من مواجهات ، فكما أن أوروبة اجتمعت تحت راية الصليب لتحقيق غاية واحدة متفق عليها ، فإن الذي ألم بالوطن العربي ، ألم به شرقا وغربا ، فالوطن العربي وطن واحد ، قطنه شعب واحد تفاعلت أحداثه وشؤونه بشكل دائم .

وهكذا كما درسنا في الجزء المتقدم أوضاع المشرق العربي مع عمقه الاسلامي في القرن الخامس هـ - الحادي عشر، علينا - حتى تستكمل الصورة - أن نتولى بالدراسة أوضاع المغرب والأندلس وجزر المتوسط في هذه الفترة عينها ، إنما هنا أشعر بوجود الحاجة لتقديم عرض موجز لفتح المغرب والأندلس ، ثم تاريخ الأندلس حتى عصر دول الطوائف ، فبدون هذا العرض يصعب فهم العديد من القضايا ، لاسيما أن الوطن العربي في المغرب لم يمتلك آنذاك عمقا اسلاميا كما الحال في المشرق .

## فتح المغرب

اطلق العرب على البلاد الواقعة الى الغرب من مصر اسم المغرب ، وهي البلاد التي تتضمن الدول العربية في الشمال الافريقي : ليبيا ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب وموريتانيا وتبعاً لروايات المصادر العربية احتك العرب بعد قيام الاسلام ، بهذه البلاد بعد سنة ٢٢ هـ — وقبل ٢٦ هـ (٦٤٣ - ٦٤٧ م) ، وعرف العرب سكان المغرب قبل الفتح باسم البربر ، ولعلهم حين عرفوهم بهذا الاسم قد ورثوا التسمية الرومانية « *Barbari* » التي استخدمها الرومان ومن قبلهم الاغريق ثم اخيراً بيزنطة ، واطلقوها على جميع الشعوب ذات الانظمة القبلية والحياة البدوية .

وحاول الكتاب العرب تفسير هذه التسمية الشاذة على قاعدة علم الانساب ، مع ان البربر انفسهم لم يسموا انفسهم هكذا بل «الاحرار» وتعرف بقاياهم الآن باسم «الشلوح» ، وهم بشكل عام عند العرب الاوائل كانوا يتألفون من كتلتين بشريتين رئيسيتين هما : البرانس والبتر ، وقد ضمت كل كتلة منهما عددا كبيرا من القبائل المتفاوتة الاحجام والادوار ، ومن المرجح ان قبائل البربر جميعا قد تكونت عبر فترات التاريخ من العرب الذين هاجروا الى الشمال الافريقي بحرا من سواحل الشام مثل الفينيقيين وسواهم واهم من هذا من موجات المهاجرين عبر مصر ، فقد قيل ان «المور» هم من بقايا الهكسوس ، والهجرة من مصر الى بلدان الشمال الافريقي لم تتوقف أبدا ، ولذلك عندما قام الفتح العربي للمغرب وجد العرب قبائل البربر تشابههم في العادات وأنماط العيش والطبائع والأشكال ، وبناء عليه عدت حركة فتوحات المغرب حركة تحرير مثل تحرير بلاد الشام والعراق ومصر .

ووجد العرب الحياة المدنية في المناطق الساحلية اما الداخل

فسادتها الحياة البدوية ، وفي هذا المقام يلاحظ أن جل مدن بلدان المغرب الداخلية تأسست بعد انتشار الاسلام هناك ، ومن المقرر أن غالبية المدن الساحلية كانت قد تأسست على أيدي الفينيقيين .

وعانى العرب كثيرا أثناء فتح بلدان المغرب ، وبذلوا جهودا كبيرة في تحريرها ثم في تعريبها بشكل نهائي ، ويمكن تقسيم تاريخ المغرب في الاسلام الى فترتين واحدة سبقت قيام الهجرة السلمية والهلالية ، وأخرى جاءت بعدها ، فهذه الهجرة كانت حدثا فيصلا في تاريخ المغرب الكبير وصبغته نهائيا بالصبغة العربية .

وجاءت المؤثرات اللغوية والحضارية والثقافية الى بلدان المغرب من مصر والمشرق العربي ، ومع هذا جاءت بعض المؤثرات من روما ثم روما الشرقية ، إنما كانت ضعيفة وسلطوية فقط ، ومع أن الامبراطورية البيزنطية كانت تدين بالمسيحية ، فإن المسيحية لم تصل الى المغرب بوساطتها وكانت الكنائس في المغرب معادية لكنيسة القسطنطينية لكنيسة روما ، وحين طرق العرب ابواب الشمال الافريقي كانت المناطق الساحلية خاضعة لحكم بيزنطة ، وهناك انتشرت المسيحية ، وعلى العموم شابه المغرب المشرق من حيث الموارد الدينية ، فقد كانت هناك مؤثرات مانوية مع المؤثرات الكتابية وكانت هناك وثنية طاعية ومندثرة في مناطق الداخل ، وكما في المشرق ارتبطت الوثنية في المغرب بالبداوة كنمط للحياة .

ومن المفيد الإشارة الى أنه نظرا لأن بلدان الشمال الافريقي ارتبطت بشكل مباشر بأفريقيا السوداء ، فقد وجد فيها عناصر سوداء ذابت في جسم المجتمعات المغربية ، وبلدان المغرب تولت يوما التأثير الكبير على سكان القارة الافريقية ، وبعد قيام الاسلام وانتشاره في المغرب منه انتقل الى شعوب القارة الافريقية ، وساعد قرب سواحل المغرب من سواحل شبه الجزيرة الايبيرية في قيام هجرات بشرية احيانا كهجرة الوندال ، كما أن المواجهة القريبة من سواحل اجزاء هامة من غربي أوروبا - خاصة ايطاليا - أغرت

بعض المهاجرين الأوروبيين بالقدوم الى بلدان المغرب ، لكن لم ينجم عن هذا تغييرات عرقية او اجتماعية عميقة .

وبعد هذه المقدمات العامة إذا ما انتقلنا الى الحديث عن فتوح المغرب نجد انه بعد ما فرغ عمرو بن العاص سنة ٢٢ هـ - ٦٤٣ م من فتح الاسكندرية زحف نحو ليبيا فافتتح طرابلس ولبدة وصبراتة ، وانتزعهم من ايدي البيزنطيين ، ثم اخذ يوجه سراياه في غزوات استطلاعية للفتح الاستراتيجي ، وهكذا امتلك العرب ما احتاجوه من معلومات عن اوضاع تونس التي دعوها باسم إفريقية ، وكتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب يستأذنه في الزحف نحو إفريقية ، لكن الخليفة رفض خشية التغيير وقال : «لاإن إفريقية غادرة مغدور بها» (٣) .

ويستفاد من هذا النص وسواه أن العرب قد توفرت لديهم معلومات كافية عن ارض إفريقية مع السكان ، وأنهم وضعوا خططهم لفتحها لكنهم تريثوا لجمع ما يكفي من قوات ولتأمين قاعدة للتقدم والزحف العسكري ، واتخذت طرابلس قاعدة ، لكن كان لها مخاطرها لوقوعها على الساحل المتوسطي ، فقد كانت بيرنطة ما تزال تملك قدرات بحرية كبيرة ، ونجد على العموم انه إذا كان فتح مصر وليبيا اشبه بنزهة عسكرية ، فإن فتح بقية اجزاء المغرب كان من اقصى المهام واكثرها عنفا.

وكان بعدما توفي امير المؤمنين عمر بن الخطاب استخلف عثمان بن عفان ، وتبع هذا التغيير تغييرا آخر في جهاز الولاية في مصر ، فقد قام عثمان بعزل عمرو بن العاص عن ولاية الفسطاط ، وافرد ولاية مصر مع ولاية المغرب الى عبد الله بن سعد ابن أبي سرح ، وكان قبل ذلك شريكا لعمرو بن العاص في الولاية ، لكن حين أبى عمرو أن يبقى «كماسك البقرة بقرنيها و آخر يحلبها» عزله عثمان ، وذكر خليفة بن خياط أن عزل عمرو جاء سنة ٢٧ هـ - ٦٤٨ م ، وأوضح ابن عبد الحكم أن ابن أبي سرح أخذ بعد تسلمه لمنصبه « يبعث المسلمين في جرائد الخيل كما كانوا

يفعلون في أيام عمرو فيصيبون من اطراف إفريقية » ، وعندما اكملت القوات العربية أعمال استطلاعها تقرر القيام بالعمل الاستراتيجي ، فبعث ابن أبي سرح الى عثمان يستأذنه في غزو إفريقية ويستتمده ، وكانت إفريقية تحكم من قبل البيزنطيين ، وكان على رأس السلطة فيها قائد اسمه جرجير ، وتبعاً للمصادر العربية كان جرجير هذا قد ثار على الامبراطور البيزنطي وأعلن استقلاله ، واتخذ من مدينة سبيطلة مقراً لملكه ، وبعدت سبيطلة هذه قرابة السبعين ميلاً عن قيروان المستقبل وكانت على درجة عالية من القوة والحصانة

وأولى الخليفة عثمان الجيش الذي أمد به ابن أبي سرح عناية كبيرة ، فجعله يحوي مشاهير رجال العرب وأشرفهم مع عدد من الصحابة وكبار أبناء مشاهير الصحابة مثل العبادلة عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبير ، وذلك بالإضافة الى مروان بن الحكم ، ومعبد بن العباس ابن عبد المطلب ، وعبد الرحمن بن أبي بكر وغيرهم كثير

وعندما التقى الجيش العربي بجيش جرجير ، وجد العرب أنفسهم أمام جيش أكثر عدداً وأحسن تسليحاً وعدداً ، وقامت مناوشات بين الطرفين لعدة أيام ، ثم قام ابن أبي سرح بوضع خطة محكمة للالتحام بأن قسم قواته الى قسمين قسم شارك في الالتحام بينما كمن القسم الآخر ، وعندما تعب المتحاربون خرج الكمين العربي فأوقع هزيمة ساحقة بالبيزنطيين ، وسقط جرجير بين القتلى ، ففي المشرق عندما هزم العرب جيوش بيزنطة في الشام وجيوش الفرس في العراق وإيران خلصت لهم البلاد ، ودان لحكمهم السكان المحليون ، لكن هنا في المغرب اختلقت الاوضاع ، فقد أراد العرب فتح البلاد ساحلاً وداخلاً ، وحين هزموا البيزنطيين سيطروا على السواحل ، وبقي عليهم خوض معارك مريرة للسيطرة على المناطق الداخلية التي لم يكن لبيزنطة سيطرة عليها، ودانت كل بقعة منها لزعامة قبلية محلية.

هذا ولم يتمكن ابن أبي سرح من استغلال نصره المبين بالتوغل داخل الأراضي المغربية ، وسبب هذا ما واجهه من قلاقل داخل صفوف جيشه ، فقد روي أنه حصل على غنائم عظيمة ، وجاء توزيع هذه الغنائم بشكل غير عادل ، مما أثار حفيظة الجند ، وكان بالتالي بمثابة شرارة أولى أدت بعد تطورها الى المساهمة في الثورة على عثمان وقيام أحداث الفتنة الكبرى ، ومن المرجح على هذا أن النصر على جرجير كان آخر معركة كبرى خاضها العرب في المغرب في العصر الراشدي ، وبما أن الغنائم كانت توزع بعد القتال مباشرة ، فإن القلاقل الناجمة أرغمت ابن أبي سرح على عدم متابعة زحفه واستغلال نصره ، حيث تصالح مع بقايا البيزنطيين على « ثلاثمائة قنطار من الذهب ، على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم » (٤) .

وتفجرت أحداث الفتنة الكبرى التي أدت بحياة الخليفة عثمان ابن عفان ، وفي أثناء خلافة الامام علي بن أبي طالب ، تقلب على ولاية مصر عدد من الولاة ، لم تخلص الولاية لواحد منهم ، وعندما آلت الخلافة الى معاوية بن أبي سفيان أعطى ولاية مصر الى عمرو ابن العاص ، وفق بنود تحالفهما قبيل الحرب في صفين ، وبعودة عمرو بن العاص الى الفسطاط عاد النشاط العسكري العربي واستؤنفت حركة الفتوح ، ففي سنة ٤١ هـ - ٦٦١ م ( عام الجماعة ) «ولى عمرو بن العاص ، وهو على مصر ، عقبة بن نافع الفهري - وهو ابن خالة عمرو - إفريقية » وقام عقبة بعدة غارات في داخل إفريقية ، وفعل الشيء نفسه في العام التالي ، ثم في العام الذي تلاه ، وهو العام الذي توفي فيه عمرو بن العاص (٥) .

ويرجح أنه في سنة ٤٥ هـ - ٦٦٥ م أفرد الخليفة معاوية بن أبي سفيان لسمية معاوية بن حديج شؤون إفريقية ، وبهذا فصلها عن ولاية مصر وأفرداها ، وجاء هذا نتيجة لعدة عوامل كان منها - كما يبدو - قيام واحد من قادة جرجير واسمه جناديوس بالقبض على ناصية الأمور هناك بعده ، وظل وفيما للوعد الذي قطع للعرب من قبل



بقيادة ابن أبي سرح ، إنما في أثناء انشغال العرب بالحروب الأهلية حاولت بيزنطة إعادة نفوذها الى إفريقية ، فبعثت بواحد من قادتها الى هنا لكنه أخفق بعدما التقى مع جناديوس في معركة ومن ثم اضطر الى مغادرة الشمال الأفريقي والعودة الى حيث أتى ، على أنه ما لبث جناديوس نفسه أن واجه تحركا داخليا لم يستطع التغلب عليه ، لذلك غادر إفريقية واتجه نحو معاوية بن أبي سفيان ، فكان أن أرسل معه جيشا بقيادة ابن حديج قيل بلغ تعداده عشرة آلاف مقاتل ، وضم بين صفوفه عددا من مشاهير العرب كان منهم عبد الملك بن مروان ، وزحف جيش ابن حديج - بعد ما وصل الى مصر - من الاسكندرية الى برقة وطرابلس ، وتوغل هذا الجيش حتى المنطقة التي ستقام فيها مدينة القيروان ، وهناك علم بنزول حملة بيزنطية في منطقة غابات الزيتون بين سفاقس وسوسة ، فأرسل ضدها وحدة من قواته طردها ، واحتل ابن حديج عدة مواقع وأقام مدة سنة تقريبا يثبت سراياه ويعمل الغارة داخل إفريقية ، وإثر هذا عاد الى مصر ، ولا ندري ما الذي حل بجناديوس الذي كان برفقته ، وكل الذي نعرفه أن ابن حديج عاد الى مصر دون أن يبرم عهدا أو اتفاقية مع طرف من الأطراف ذات السلطة في إفريقية ، وعلى الرغم من عودة ابن حديج الى مصر يرجح أن بعض القوات العربية بقيت معسكرة في طرابلس ، ومن هناك كانت تقوم بالغارات الاستطلاعية (٦) .

هذا ويمكن عد ماتم حتى الآن من أعمال عسكرية في الشمال الأفريقي مجرد أعمال تمهيدية للفتح الدائم ونشر الاسلام وتعريب البلاد ، وكان هذا العمل الحاسم قد بدأ مع سنة ٥٠ هـ - ٦٧٠ م ، وارتبط باسم عقبة بن نافع الفهري ، ففي هذه السنة « وجه معاوية عقبة بن نافع الى إفريقية فخط القيروان وأقام بها ثلاث سنين » ، ومع أن عقبة لم يكن قائد الجيش الوحيد الذي عمل في هذه السنة في الأراضي المغربية ، حيث أن مسلمة بن مخلد والي مصر بعث معاوية بن حديج على رأس جيش توغل داخل الأراضي المغربية ، فإن الذي حققه عقبة بن نافع كان بعيد الأثر ، وعلى

راس ما حققه كان إقامة مدينة القيروان ، التي أقيمت بعيدا عن الساحل في موقع استراتيجي داخل البر المغربي فغدت قاعدة عربية متقدمة للفتوح عسكريا وثقافيا ودينيا واقتصاديا ، والمركز الأول الذي حمل مسؤوليات اعمار الشمال الافريقي وتعريب الأرض والسكان بشكل دائم وثابت.

ولهذا يحيط العرب اخبار بناء القيروان بهالة خاصة وقدسية فائقة ، فقد كان مع عقبة بن نافع « في عسكره خمسة وعشرون من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم » وأنه حينما وقع اختياره على موقع القيروان اقبل يدعو لها ويقول في دعائه: اللهم املاها علما وفقها واعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزا لدينك وذلا لمن كفر بك ، واعز بها الاسلام وامنعها من جبابرة الأرض ، وبعد هذا وقف على واديها فقال : « يا اهل الوادي اظعنوا فإننا نازلون ، وإننا من وجدناه قتلناه » ونظر الناس بعد ذلك الى امر معجب من أن السباع تخرج من الشعار تحمل أشبالها والذئب يحمل جروه والحيات تحمل اولادها « وهنا نادى عقبة في الناس « كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا ».

يبدو أن هذا ما كان الا تحريفا اسطوريا لما قام به عقبة حين شرع في اتخاذ معسكره حيث أنه أمر كما يبدو بطرح النار في البقعة التي اختارها لتنظيف ما كان بها من اشجار وأعشاب وغير ذلك ، وتطور هذا المعسكر الى مدينة حملت اسم القيروان ، وهي لفظة معربة مثلها مثل لفظة فسطاط تعني معسكر الجيش أو القافلة أو معظم الجيش.

وظل عقبة في منصبه حتى سنة ٥٥ هـ - ٦٧٥ م ، ففي هذه السنة أو قبلها وضع الخليفة معاوية بن ابي سفيان ولاية إفريقية تحت لواء والي مصر مسلمة بن مخلد ، فقام بعزل عقبة وأرسل جيشا الى إفريقية جعل على رأسه خالد بن ثابت الفهمي « وأمره أن يستخلف أبنا المهاجر دينارا » وكان الوالي الجديد من

الأنصار ، وكان مؤلى لمسلمة بن مخلد ، ويبدو أنه أساء معاملته عقبة عندما تسلم أعماله منه (٧) .

ولا نمتلك تفاصيل كثيرة عن أعمال أبي المهاجر ، سوى أنه لم يقيم في القيروان عقبة ، واتخذ لنفسه معسكرا خاصا على ميلين منها عرف باسم تيكروان ، وظل أبو المهاجر في منصبه حتى ما بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان ، وقيل غير هذا ، لكن يرجح أن معاوية اشرك معه غيره في الولاية ففي سنة ٥٧ / ٦٧٧ «وجه معاوية بن أبي سفيان حسان بن النعمان الغساني الى إفريقية ، فصالحه من يديه من البربر ، ووضع عليها الخراج ، فلم يزل عليها حتى مات معاوية» (٨) .

وبعدما عزل عقبة من منصبه ، توجه نحو بلاد الشام حيث لقي معاوية بن أبي سفيان فعادته على عزله ، فطيب معاوية نفسه ومناه ، ومكث عقبة في دمشق حتى ما بعد وفاة معاوية واستتباب الأمور لابنه يزيد ، حيث قام بإعادته إلى ولاية إفريقية ، وربما تم هذا سنة ٦١ هـ - ٦٨١ م ، وفي ولاية عقبة هذه وصلت الفتوحات العربية إلى أقصى المغرب ، وفي ذروة النجاح هذه أصيب العرب بنكسة كبيرة كادت تفقدهم كل ما حصلوا عليه في السنين المتقدمة .

خرج عقبة من الشام مسرعا نحو مصر ، وكان بصحبته بعض القوات الشامية ، وعندما مر بمصر اعتذر له مسلمة بن مخلد من فعل أبي المهاجر « فقبل عقبة منه ومضى سريعا لحققة على أبي المهاجر حتى قدم إفريقية ، فأوثق أبا المهاجر بالحديد ، وأمر بخراب مدينته ، ورد الناس إلى القيروان » .

ثم عزم بعد هذا على الغزو ، وعندما تحرك ترك في القيروان جندا استخلف عليهم زهير بن قيس البلوي ، وتحرك عقبة فاجتاح في تحركه المغرب الأوسط فهزم من تصدى له من بقايا القوات البيزنطية والقبائل البربرية ، ودخل المغرب الأقصى فهزم كل من اعترض سبيله ، ودخل طنجة « فلقية رجل من الروم يقال له اليان » وبعدما حصل عقبة على بعض المعلومات توجه نحو السوس

الأدنى فهزم من قاومه من البربر « ومضى كذلك حتى دخل السوس الأقصى فاجتمع به البربر في عدد لا يحصى فلقبهم فقاتلهم قتالا شديدا ما سمع أهل المغرب بمثله ، وقتل منهم خلقا عظيما وأصاب منهم نساء لم ير الناس في الدنيا مثلهن » .

وكان هدف عقبة الأساسي في حملاته دعوة الناس إلى الاسلام ، ويرجح أن كثيرا من قبائل البربر أعلنت إسلامها ، وحين قال المؤرخون العرب إن عقبة قد وصل إلى السوس الأقصى ، وهناك اقتحم المحيط بفرسه حتى وصل الماء إلى تلابيبه وقال : يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدا في سبيلك ، هذا يعني أنه كان يرنو ببصره نحو أوربة ، ولم يفكر قط في التوغل داخل افريقيا السوداء ، أضف إلى هذا أن المقصود بالسوس الأقصى هنا مصب نهر السنغال في المحيط الأطلسي .

ولقد كانت الانجازات التي حققها عقبة عظيمة جدا ، وكانت الغنائم كبيرة ، وعندما فكر عقبة في العودة نحو القيروان أرسل القسم الأكبر من قواته مع العيال والغنائم ، وأبقى لنفسه قوة صغيرة ، وكان معه أحد زعماء البربر واسمه كسيلة ، وقد استطاع كسيلة هذا أن يهرب ، ومن ثم قام بحشد رجال قبائله ، وبالوقت نفسه تحالف مع بقايا بؤر المقاومة البيزنطية ، وقبل أن يصل عقبة إلى منطقة القيروان سعى للاستيلاء على مدينة تدعى تهودة ، ويبدو أن حصاره لهذه المدينة أتاح الفرصة أمام كسيلة للتحرك وقطع الطريق على عقبة ، وعلى مقربة من تهودة ، وعلى حين غرة وجد عقبة نفسه أمام جموع كسيلة ، فلم يتردد في الاشتباك مع هذه الجموع في معركة انتحارية سقط فيها هو وجميع من كان في صحبته ولعل هذا كان سنة ٦٨٤ م ، ودفن عقبة حيث استشهد ، وبعد فترة غلب اسمه على الاسم القديم للمدينة ، فأصبحت تهودة تعرف بسيدي عقبة ، وقبر عقبة له مكانة عالية في نفوس أهل المغرب العربي الكبير ، وصورة عقبة هناك صورة المثل الأعلى للبطل العربي المسلم\* .

وعقب مصرع عقبة زحف كسيلة بجموعه نحو

القيروان » فخرجت العرب منها ولم يكن لهم بقتاله طاقة لعظيم ما اجتمع معه من البربر والروم ، واسلموا القيروان ، وبقي بها اصحاب الذراري والاثقال ، فأرسلوا إلى كسيلة يسألونه الأمان فأمنهم واجابهم ، واقام كسيلة حتى نزل القيروان ، واقام اميرا على إفريقية ، وقد بقي من بقي من المسلمين تحس يده ، فما زال على ذلك إلى أن ولي عبد الملك بن مروان « (٩) .

ولقد توافق مصرع عقبة مع الفترة التي تمخضت عن وفاة يزيد بن معاوية والحروب الأهلية في الشام والعراق والجزيرة العربية ، لكن ما إن استقرت الأمور وخلصت الخلافة لعبد الملك بن مروان حتى بادر بالايعاز إلى زهير بن قيس البلوي نائب عقبة في القيروان ، والذي كان قد انسحب منها ورابط في برقة فبعث إليه « يأمره بالخروج على أعنة الخيل إلى إفريقية ليستنقذ القيروان ومن فيها من المسلمين ، وكتب له زهير بن قيس يعرفه بكثرة من اجتمع إلى كسيلة من البربر والروم ويستمدده الرجال والأموال » واستجاب عبد الملك لطلبه فأوعز إلى أخيه عبد العزيز بن مروان والي مصر بتوجيه الامدادات إلى زهير وقام هو بدوره « فوجه إليه وجوه أهل الشام .... وبعث إليه الأموال » وكان هذا سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م ، وزحف زهير باتجاه القيروان وعندما دنا منها انسحب كسيلة من قربها إلى مكان يدعى ممش على مسيرة يوم واحد من القيروان ، وكانت قوات كسيلة أكبر من قوات زهير ، والذي دعاه إلى الانسحاب خشيته أن يخرج عليه أهالي القيروان من العرب فيقع بين فكي الكماشة ، والتقى الجيشان في ممش والتحما « في القتال ، ونزل الصبر ، وكثر القتل في الفريقين حتى يئس الناس من الحياة ، فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل » وقامت قوات زهير بملاحقة فلول جيش كسيلة وإعادة السيطرة العربية على المغرب ، واستمر هذا حتى سنة ٧١ هـ / ٦٩٠ م حيث « رحل زهير قافلا إلى المشرق » وكان السبب في عودته ما بلغه من اخبار عن قيام بيزنطة بإزالة قوات اغارت على برقة وغيرها عن المناطق مستغلة غياب زهير ، واصاب البيزنطيون سبيا وأموالا للمسلمين كثيرة ، وعندما

شرع زهير بالعودة « أمر العسكر أن يمشوا على الطريق ، وأخذ على سواحل البحر في عدة من أشراف الناس مجدين مبادرين رجاء أن يدرك سبي المسلمين ، فأشرف على الروم ، فراهم في خلق عظيم فلم يقدر على الرجوع ، واستغاث به المسلمون وصاحوا ، والروم يدخلونهم المراكب ، فنادى بأصحابه « النزول رحمكم الله » فنزلوا « وكانوا رؤساء العابدين وأشراف العرب ، فنزل إليهم الروم فتلقوهم بعدد عظيم ، والتحم القتال وأعانوا بعضهم بعضا ، وتكاثر عليهم الروم فقتلوا زهيرا ومن معه من المسلمين جميعا فما أفلت منهم رجل » .

ووصلت أنباء مصرع زهير وصحبه إلى الشام إلى عبد الملك « فعظم ذلك عليه ، وبلغ منه لفضله ودينه ، وكانت مصيبتة مثل مصيبة عقبة » وكانت جهود عبد الملك مصروفة آنذاك كليا للقضاء على ابن الزبير ، لذلك كان لابد من الانتظار لاعداد حملة جديدة ، وستأتي هذه الحملة مع استتباب أمور الدولة الأموية في المركز ، مما يمكن من صرف الجهود لتثبيت السلطة العربية ولنشر الاسلام بين سكان المغرب (١٠) .

وبعدما توطدت الأمور لعبد الملك ، وتم له القضاء على ابن الزبير التفت نحو قضية المغرب ، فجهز جيشا كبيرا ، عهد بقيادته إلى حسان بن النعمان الغساني ، ويبدو أن هذا كان سنة ٧٢ هـ / ٦٩٢ م ، وبعدما وصل إلى مصر غادرها إلى طرابلس ، ومن هنا قرر التوجه نحو قرطاج طبقا لخطة جيدة وواضحة ، فقد أراد أولا القضاء نهائيا على الوجود البيزنطي في المغرب ، وكان هذا القضاء يزيل من الوجود القوى العسكرية الأجنبية النظامية ، ولعل حسان ظن أنه إذا نجح بذلك سهل عليه ما بقي ، وهو القوات البربرية للقبائل المتمردة .

وفعلا نجح حسان في فتح قرطاج ، وذلك بعد جهود كبيرة ، بيد أنه ماكد يخيّل إليه أن المغرب قد دان له حتى عرف بقيام تحالف بين قبائل الأوراس تحت زعامة امرأة عرفت بالكاهنة والتقى

بقواتها في معركة عنيفة انهزم فيها حسان بعدما فقد عددا كبيرا من افراد قواته ، وقام بالانسحاب نحو طرابلس ، وهكذا تخلى العرب مرة اخرى عن إفريقية ، وأقام حسان في طرابلس ما يقرب من خمس سنوات حتى وصلته إمدادات كبيرة من الشام ، فعاد أخذ طريق إفريقية ، والتحم مع قوات الكاهنة فاستطاع أن يوقع فيها الهزيمة ويقتل الكاهنة نفسها ، ولقي حسان في صراعه مع الكاهنة مساندة بعض البربر وغيرهم من السكان المحليين ، ذلك أن الكاهنة عمدت إلى سياسة تدميرية مريعة للعمران في إفريقية ، فقد قالت لاتباعها « إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ، ونحن إنما نطلب منها المزارع والمراعي ، فما نرى لكم إلا خراب إفريقية حتى يبأسوا منها ، ويقل طمعهم فيها » .

وبعد القضاء على الكاهنة خلص المغرب للعرب ، ودخلت أعداد كبيرة من سكانه في الاسلام ، ونعمت البلاد بقسط وافر من الاستقرار ، وبدأ العرب ينظمون أحوال البلاد و يقيمون إدارة خاصة بها ، وكان حسان بعد هزيمته للكاهنة قد تخلى عن مدينة قرطاج - العاصمة القديمة لأفريقية - وبعد هذا قام ببناء مدينة جديدة ، على مقربة منها ، جعلها مركزا جديدا لأفريقية ، ودارا لصناعة المراكب ، وعرفت هذه المدينة باسم تونس ، واستعارت هذا الاسم من قرية كانت قريبة منها عرفت باللاتينية بـ **tynis**

ويبدو أن نجاحات حسان وإنجازاته بالمغرب قد ضايق عبد العزيز بن مروان ، أخو الخليفة وولي عهده وحاكم مصر ، فقام عبد العزيز بعزل حسان وولى مكانه موسى بن نصير ، ولعل هذا كان سنة ٨٤ هـ / ٧٠٣ م (١١) .

ولئن عد حسان بن النعمان الفاتح الذي أوجد شخصية المغرب العربي ، فإن موسى بن نصير ثبت ملامح هذه الشخصية ووضحها ، هذا وتختلف المصادر حول تحديد سنة استلام موسى بن نصير لولاية المغرب ، فبعضها يذكر أنه استلمها أيام عبد الملك بن مروان ، أي قبل وفاة عبد العزيز بن مروان ، وكان عبد العزيز قد توفي سنة

٨٤ هـ / ٧٠٣ م ، وكان ذلك قبل وفاة عبد الملك بعامين ، ويمكن القول إن موسى ولي إفريقيا لعبد العزيز ، ثم وليها منفصلا عن ولاية مصر منذ سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م ، أي منذ بداية خلافة الوليد بن عبد الملك .

وجاء حكم موسى للمغرب حدثا حاسما في تاريخه ، فقد نشط هذا الوالي المجرب نشاطا عسكريا كبيرا إلى أقصى المغرب ، إلى حيث وصل عقبة من قبل ، وتمكن هكذا من الحصول على طاعة جميع قبائل المغرب وإعلان قبولها للإسلام ، كما أنه استطاع تصفية جميع ما تبقى من جيوب المقاومة في المدن والقلاع والحصون ، ولم يقتصر نشاط موسى على البر فقط ، بل قامت بعض قواته بغارات على سواحل صقلية وشبه الجزيرة الأيبيرية ، وبعدمادان المغرب جميعه لموسى ، وبعدماد تجمعت لدى موسى الامكانات البشرية والمادية ، وبعدماد غدا بإمكانه تجنيد بعض القوات من البربر الذين دخلوا في الاسلام ، شرع في تنفيذ خطط جديدة تتواءم مع أهداف الخلافة بالسيطرة على البحر المتوسط ، وتماشيا مع ما تفرضه الجغرافية على التاريخ ، فما من قوة وحدت المغرب إلا وحاولت السيطرة على شبه الجزيرة الأيبيرية ، هذا من جانب ومن جانب آخر عندما كانت قوى شبه الجزيرة هذه تخفق في التوسع داخل القارة الأوروبية تنعطف نحو الشمال الافريقي (١٢) .



## فتح الأندلس والتوسع في أوربة

من المقرر أن فتح الأندلس قد جاء مثل غيره من الفتوحات العربية تنفيذا لخطط الفتح التي اعتمدت في أيام الوليد ، واستهدفت فيما استهدفته السيطرة على حوض البحر المتوسط وعلى منفذيه مضيق جبل طارق والبوسفور ، ومع ذلك إن هذا الفتح يختلف بعض الشيء عن الفتوحات الأخرى ، ولهذا السبب نحن بحاجة للبحث فيه ضمن أطر خاصة وموازين ذاتية ، ذلك أنه إذا كانت الفتوحات في اسية وأفريقيا أعمال توسع للدولة العربية ونقلًا للإسلام إلى أراضي متاخمة للأراضي الإسلامية ومتصلة بها ومتداخلة معها ، فإن ما تم هنا هو الانتقال من قارة إلى قارة ، ويواجهنا هنا سؤال هو : لماذا قصر العرب فتوحاتهم على الشريط الجغرافي المقطون بسكان بيض البشرة ، ولماذا لم يتوسعوا في وادي النيل للوصول إلى الحبشة ، ثم لم يتوسعوا داخل أفريقيا السوداء بعد اكمال سيطرتهم على الشمال الأفريقي ؟

وقبل أن نقدم الاجابات المعللة لهذا السؤال من المفيد الإشارة الى أن هناك من ذهب في أيامنا إلى القول إن العرب لم يفتحوا بلاد الأندلس ، ولم يكن هناك أعمال عسكرية بقيادة طارق أو موسى ، بل الذي حدث هو توسع حضاري وعقائدي ، والحجج المقدمة هنا فيها ثغرات كبيرة واغفال لحقيقة أن فتح الأندلس مثل غيره من الفتوحات ما كان لينجح ويكتب له الاستمرار والعطاء بدون الاسلام عقائديا وحضاريا وثقافيا ونظاما.

وجاء انكار عملية الفتح في كتاب حمل عنوان « العرب لم يغزوا الأندلس رؤية تاريخية مختلفة » (١٣) وهذا الكتاب ترجمة ممسوخة لكتاب ألف بالاسبانية وصدر عام ١٩٧٤ لباحث اسباني اسمه اغناسيو ولاغي وتولى الترجمة بتصريف واختصار السماعيل الامين وم

الواضح ان المترجم يمتلك معلومات فقيرة جدا عن التاريخ العربي بشكل عام والتاريخ الأندلسي بشكل خاص ، ولهذا عجز عن ضبط جل الأسماء العربية ، واستهدف الترويج عن طريق الاثارة على قاعدة مخالفة المؤلف ، وليس من أجل خدمة الحقيقة العلمية ، ثم إنه ليس لديه خبرة بعلم التاريخ عند العرب في المشرق ثم الأندلس ، مع جهل بما حدث خلال العصور الوسطى الإسلامية.

وإذا ما عدنا للإجابة على السؤال نجد ابن خلدون يروي في تاريخه « أن البربر ارتدوا اثنتي عشرة مرة من طرابلس الى طنجة ، ولم يستقر اسلامهم حتى أجاز طارق موسى بن نصير الى الأندلس ، بعد أن دوخ المغرب ، وأجاز معه كثيرا من رجالات البربر وأمرائهم برسم الجهاد ، فاستقروا هناك من لدن الفتح ، فحينئذ استقر الاسلام بالمغرب وأذن البربر لحكمه ، ورسخت فيهم كلمة الاسلام وتناسوا الردة » .

هذا وفي الوقت الذي جعل فيه ابن خلدون فتح الأندلس حلا لمشاكل المغرب نجد قبله الرقيق القيرواني يجعل هذا الفتح يقوم لحماية المغرب من مخاطر هجوم يأتي عن طريق الأندلس ، فجاءت - هكذا حملة المسلمين على الأندلس بمثابة هجوم وقائي ، وليس توسعا مثل بقية الفتوحات .

إن في كل من هذين التعليين الكثير من الصواب ، إنما يمكن أن يضاف إليهما تعليقات أخرى يجعلها المؤرخ المعاصر ويستخرج أدلتها من سياق الحوادث ، فبالإضافة لسياسة العرب تجاه البحر المتوسط نلاحظ أن التوسع في الشمال الأفريقي كان حركة تحرير للجزء الأفريقي من الوطن العربي ، الذي تمتد جذور وجوده في أعماق التاريخ ، وتحدت معاله وترسخت بفضل الاسلام ، وتعليل هذه الظاهرة مرتبط بانشاط العالم الإسلامي الى شطرين: عربي وأعجمي ، ثم إن العرب لم يتوسعوا داخل أفريقية السوداء لأسباب اقتصادية واجتماعية بشرية حضارية ، ثم هناك مشكلة التصور الجغرافي والمعرفة بأقاليم الأمم الأخرى وبلدانها ، فلقد كانت

أفريقيا السوداء عالما مجهولا بالنسبة للعرب ، كما أنه كان عالما في غاية الفقر ، مرابحه قليلة ، يحتاج نشر الاسلام بين شعوبه الوثنية الى وقت طويل وجهود متواصلة ، يضاف الى هذا أن فتحه كان سيكون على درجة عظيمة من الصعوبة بالنسبة للعرب الذين اعتادوا على الأرض المكشوفة والأقاليم المعتدلة ، فهناك من يقول: يعيش العربي حيث يعيش الجمل وحيث ينبت الزيتون ، هذا وكان للعرب تجارب مريرة غير مشجعة حينما حاولوا التوسع في أراضي النوبة والتوغل في وادي النيل ، وبالمناسبة انتشر الاسلام في أفريقيا بفضل قوة وفعالية معطيائه العقائدية والحضارية مع نظمه ، ولهذا جاء هذا الانتشار بدون تعريب ، لكن الذي حدث بالأندلس كان تعريبا كاملا لقرون طويلة.

وفي الوقت الذي جهل فيه العرب الى حد كبير افريقيا السوداء كانت لديهم معلومات جيدة عن أوروبا وخاصة عن الأندلس وصقلية وبعض جزر المتوسط ، فمنذ أن فرغ العرب من بناء قوتهم البحرية في عهد عثمان بن عفان أخذت أساطيلهم تجوب البحر المتوسط وتعمل الغارات وتخوض المعارك ضد أساطيل بيزنطة وغيرها ، ولهذا كانت لديهم معلومات عن الأحوال السياسية والاجتماعية والبشرية والاقتصادية والدينية لشبه الجزيرة الايبيرية وصقلية ، والواقع أن هذه الأوضاع هي التي دعتهم الى العبور الى شبه الجزيرة الايبيرية ، وهي التي سببت لهم النجاح ، وهنا نجد انفسنا بحاجة للقيام باستعراض لأحوال شبه الجزيرة الايبيرية وتاريخها قبل قيام الفتح الاسلامي وأيام حدوث الفتوح.

كانت شبه الجزيرة الايبيرية تحت حكم الفيزقوط ( القوط الغربيون ) الذين كانوا قد دخلوها في سنة ٤١٤م ، وذلك بعد هجرة الفندال اليها ، وقد تملكوا المنطقة الشمالية الشرقية من البلاد ، ثم مدوا نفوذهم عليها جميعا وتسببوا في هجرة الوندال الى الشمال الافريقي ، ومن الوندال نالت الأندلس تسميتها ( فندلسيا ) وكان القوط مثل غالبية القبائل ذات الأصل الجرمانى ، يؤمنون

بالنصرانية إنما تبعا للعقيدة الاريانية ، التي اختلفت عن غيرها من العقائد بنظرتها الى طبيعة السيد المسيح وتأليهه ، هذا في حين كان السكان المحليون ( الهسبورومان ) يؤمنون بالكاثوليكية ، لذلك كان الوفاق منعما بينهم وبين الفيزقوط ، ولم يكن في شبه الجزيرة الايبيرية وحدة وطنية او اجتماعية ، وفي عام ٥٨٩ اعتنق ملك الفيزقوط الكاثوليكية ، وهكذا امكن بعد ذلك قيام دولة موحدة تسيطر على جميع شبه الجزيرة الايبيرية ، اي اسبانية اليوم مع جزء من جنوب فرنسا الحالية.

في هذه البلاد كان هناك طبقة من النبلاء العليا احتكرت لنفسها السلطات الزمنية مع الكنيسة ، وكانت الدولة دولة ملكية ، لكن المؤسسة الملكية فيها كانت ضعيفة ، لأن الملك كان ينتخب من بين رجالات طبقة النبلاء وبوساطتهم ، وهكذا لم يكن هناك قانون ثابت للملكية ، ولا مبدأ مقرر للوراثة العرش ، وقد جرت بعض المحاولات من قبل عدد من الملوك لتأمين العرش لابنائهم بعد موتهم بوساطة إشراكهم في الحكم أيام حياتهم أو بالتنازل عن العرش ، ولم تمر هذه المحاولات دون معارضة شديدة من قبل النبلاء أصحاب المطامع والنزعات السلطوية والاستقلالية ، مما كان يسبب الاضطرابات الدائمة والقلق المستمرة ، وكان هناك مؤامرات مستمرة لتولي الحكم بعد وفاة الملك.

يضاف الى هذا أن ملوك الفيزقوط كانوا يعانون من الضعف بسبب طبيعة جيوشهم واحوالها ، فقد كان - نظريا - على كل حر قادر على حمل السلاح القيام بخدمة الملك ، لكن بسبب تركيب طبقة النبلاء وعلاقاتها بالعرش واسباب أخرى نجد الملوك من الفيزقوط ، يجدون - فعليا - منذ القرن السابع من الصعب جدا جمع جيش قادر.

والى جانب النبلاء ، تشكل شعب شبه الجزيرة من الأحرار الذين انحسروا من أصل اسباني - روماني ، أي كانوا نتاج المستعمرات الرومانية في اسبانيا أيام الامبراطورية الرومانية ، وبالإضافة الى

طبقة الأحرار وجد الكثير الكثير من الأتقان والفلاحين الفقراء التعساء ، وكان هناك ظلم اجتماعي واستغلال وبالتالي كانت هناك شكوى مع تنمر دائم ، ولا شك أن هذا سهل عملية الفتح العربي حيث نظر الناس الى المسلمين كمحررين ، ويرجح أن أخبار ما أحدثه الاسلام في الشمال الأفريقي مع مؤثرات اسلامية قوية قد وصلت الى شبه الجزيرة الايبيرية قبل وصول الفاتحين ، ولهذا ساعد بعض الاسبان العرب ، وقبلوهم عموما ولم يقاوموهم ، كما كانت الكنيسة الاسبانية مستبدة تتميز بالطغيان والجهل وشدة التعصب ، وكانت المدن الاسبانية أيام الفيزقوط تعيش في احوال متردية ، ذلك أن هؤلاء المتسلطين كانوا قوما بدينيين مهملين للتجارة والصناعة والثقافة ، بل لكل ما هو متصل بالحضارة ، وكان في المدن الاسبانية جاليات كبيرة من اليهود ، وقد أساءت السلطات الاسبانية مع الكنيسة معاملة اليهود ، ونظرت اليهم نظرة سوء وأصدرت عدة قوانين وقرارات لتنصير اليهود ، وهكذا جعلتهم في اوضاع أصبح فيها من المستحيل عليهم متابعة ممارسة العمل بالتجارة وغيرها من صناعات المال ، وقيل: جعل هذا يهود اسبانيا يتألمون مع يهود شمال افريقيا ضد الحكم الفيزقوتي ، لكن لم يكن لهؤلاء اليهود أي سلطان أو نفوذ من أي نوع على السلطات العربية في المغرب ، إنما يلاحظ أن يهود اسبانيا قدموا للعرب ما احتاجوا اليه من معلومات عن اسبانيا ، وبعد ما نزل العرب الى البر الأندلسي وقهروا الفيزقوط قدم اليهود لهم بعض المساعدات المفيدة وعملوا بمثابة أدلاء لجيوشهم.

وحين نستعرض أخبار العرش الاسباني قبيل الفتح نجد حسب المواريث الجرمانية أبا وابنا يحكما شبه الجزيرة الايبيرية منذ عام ٦٨٧ م ، وقد أراد الابن واسمه ويتزا أن يخلفه أحد اولاده واسمه أخيلا فقام بتعيينه دوقا على القسم الشمالي الشرقي من المملكة ، وعندما مات ويتزا في عام ٧١٠ م رفض فريق من النبلاء الاعتراف بأخيلا ، وقيل إنهم انتخبوا رودريك (عند العرب لذريق) ملكا ، ومع هذا احتفظ أخيلا بدوقيته حتى أنه ضرب بقوده

الخاصة ، واعتبر رودريك مغتصباً ، وسعى الى خلعه عن العرش واعتلائه هو بنفسه .

وخاض رودريك ضد أخيلأ أكثر من معركة ، وعندما نزل المسلمون في شبه الجزيرة الايبيرية كان رودريك مذبذباً في الحرب بالشمال ، هذا وحين تتحدث المصادر العربية عن فتح الأندلس نرى بعضها يذكر أن أخيلأ ، أو واحداً من اخوانه ، اتصل بطارق بن زياد الذي كان معسكراً في طنجة مع قوة مؤلفة من اثني عشر ألف مقاتل ، وقال له : « أن أبي مات ووثب على مملكتنا بطريق (أي زبيل) يقال له لذريق ، وبلغني أمركم فجئت اليكم ادعوكم اليها (اسبانيا) وأكون دليلكم عليها » ولأقت هذه الدعوة أننا صاغية من طارق وقوت عزيمته « على غزو الأندلس ، واستنفر البربر ..... وجعل يحمل البربر في مراكب التجار التي تختلف الى الأندلس ، ولا يشعر بهم أهل الأندلس ، ولا يظنون إلا أنها تختلف بمثل ما كانت تختلف به من منافعهم ومعاشهم ومتاجرهم ، فجعل ينقلهم فوجاً فوجاً الى ساحل الأندلس .... فلما لم يبق إلا فوج واحد ركب طارق ومن بقي معه فجاز الى أصحابه ، فنزل بهم جبلاً من جبال الأندلس حريزاً مديناً ، فسمي ذلك الجبل من يومئذ جبل طارق ، فلا يعلم إلا به ، وموسى بن نصير بافريقية لا يعلم شيئاً من هذا » وتذكر روايات أخرى أكثر عدداً أن الذي اتصل بالعرب هو حاكم سبته البيزنطي واسمه اليان (يوليان.جوليان) وأنه هو الذي حرض المسلمين على غزو شبه الجزيرة الايبيرية لأسباب شخصية بحتة ، فهو قد أراد أن ينتقم من رودريك لأنه كان قد أودعه في بلاطه ابنته ، فاعتدى رودريك عليها وذنس شرفها ، فعادت الى أبيها فشكت اليه ما بلت به ، وبما أن يوليان كان في وضع لا يملك فيه من القوة ما يكفي لينتقم من رودريك ، فقد حرض العرب على حربه ، وأمدهم بما أرادوه من معلومات عن الأندلس ، ثم أعارهم سفناً عبروا بها الى شاطئ الأندلس .

وتكمن مشكلة هذه الرواية في طابعها الخيالي ، فيوليان كان

بيزنطيا ، إن تبع لبلاط فلبلاط القسطنطينية ، وهكذا هو لم يتبع بلاط رودريك أن وجد لديه بلاط وكان من غير المعقول لبيزنطي في الشمال الأفريقي أن يرسل ابنته الى عند الفيزقوط البدائيين ، ويترك القسطنطينية البلد الحضاري المتقدم ، ولنتذكر أن سببة مدينة ساحلية مغربية ، وأن أرض المغرب بأكملها دانت بالطاعة للعرب ، وعلى هذا أن وجد يوليان فقد أصبح من أتباع الدولة العربية ، يضاف الى ذلك أن العرب ملكوا قوة بحرية خاصة بهم منذ قرابة سبعة عقود من الزمن ، وخاضوا بهذه القوة عددا كبيرا من المعارك وهاجموا صقلية وقبرص وغيرها من جزائر المتوسط ، هذا البحر الذي بدأ يتحول الى بحر شامي اسلامي .

ولقد شك بعض المؤرخين الحديثين في أن تكون شخصية يوليان شخصية تاريخية ، هذا وحين نرجع الى اخبار عقبة بن نافع نسمع باسم شخصية بيزنطية اسمها اليان ، اتصلت به قرب طنجة وأمدته بمعلومات عن بحر الأندلس « بأنه محفوظ لا يرام » كما أمدته ببعض المعلومات عن بربر السوس الأدنى .

ونحن إذا ما عدنا الى القصة الأولى يصعب علينا أن نصدق قيام طارق بالعبور الى شبه الجزيرة الايبيرية دون الرجوع الى رأي موسى بن نصير وأوامره ، ثم أيضا يصعب علينا أن نتصور أن يقدم موسى على المغامرة بغزو شبه الجزيرة الايبيرية دون أخذ موافقة الخليفة في دمشق ، ولعل الذي حصل هو أنه تجمع عند العرب معلومات جيدة عن احوال الأندلس ، كما تلقوا دعوات وعود بالعون من قبل التجار اليهود وسواهم ، كما شجعهم الوضع المتردي في شبه الجزيرة الايبيرية سياسيا واجتماعيا ودينيا ، وكانت هناك عمليات فتوح على جميع الجبهات وفق خطط سبق وضعها .

وقيل عن موسى بن نصير حبه الشديد للغنائم ، وشهوة طاغية للشهرة واكتساب المجد ، لذلك حين وجد نفسه وقد دان له المغرب ، وتجند في صفوف قواته عدد كبير من البربر ، أراد أن يقوم

بمغامرة مربحة ، فكان أن اخذ موافقة دمشق ، ثم قام عام ٩١ هـ - ٧١٠ م بإرسال أحد قادته واسمه طريف بن مالك على رأس قوة تتألف من أربع مائة مقاتل للقيام بغارة استطلاعية على شواطئ جنوب اسبانية ، ونجحت غارة طريف التي وقعت في مكان ما يزال يحمل اسم طريف ، وعاد طريف يحمل الغنائم والمعلومات ، وشجعت المعلومات موسى على الاقدام ، ومع ذلك لم يترك موسى جانب الحذر ، فقام في عام ٩٢ هـ - ٧١١ م بإرسال طارق بن زياد ، وكان قائدا بربريا أدخله موسى في قواته ، قام بإرساله على رأس سبعة الاف مقاتل ثم أمدّه بخمسة الاف مقاتل آخرين من البربر لغزو شبه الجزيرة الايبيرية ، ولم يرسل موسى جندا عربيا مع طارق ، لأنه أراد أن لا يضحى بعربه ، وأن ينتظر فإن كان النصر ، استغله لصالحه وصالح جنده العرب ، وهذا ما كان .

في هذه المقالة وصم لموسى بالانتهازية واللامسؤولية ، وقصر النظر لأن إرسال الجند البربر لوحدهم والتفكير بهم يدل على انعدام الشعور بالمسؤولية ، وأن هؤلاء إذا ما أخفقوا وقتلوا سيثور عليهم وقبائلهم وموسى الذي كان شيخا مجربا ما كان له ليقدّم على مثل هذا العمل ، ثم أين أمراء جيشه وأعوانه من التابعين المسلمين الاتقياء ، وهل لنا أن نتجاهل رقابة إدارة دمشق وصرامتها ؟ ! وهكذا نقرأ في مخطوط مجهول المؤلف حمل عنوان « ذكر بلاد الأندلس » : « لما انتهى ملك الأندلس إلى لنزيق القوطي ، وانتهت خلافة المسلمين إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وكان الوليد حازما فاضلا مواظبا للجهاد ناظرا في ضبط ثغوره ومصالح رعيته ، فلما ولي واستقام له الأمر ، أمر قواده بغزو الروم في البر والبحر ، وولى على إفريقية موسى بن نصير الخمي ، فخرج موسى غازيا من إفريقية إلى طنجة ، فلما وصل إلى بلد طنجة فرت قبائل البربر أمامه إلى المغرب والسوس الأقصى خوفا منه ، فسار في أثرهم يفتح البلاد والحصون ويؤمن من آمن ويقتل من كفر حتى فتح جميع بلاد السوس الأقصى ، ثم رجع إلى إفريقية وقد استقام له أمر المغرب ،



وترك واليا على طنجة مولاه طارق بن زياد وبصحبته ... من العرب وإثني عشر ألفا من البربر وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وترك معه جماعة من القراء والفقهاء يعلمون البربر القرآن وشرائع الاسلام ، فأقام طارق بن زياد بطنجة ففتح الأندلس ، وكان طارق من البربر من قبيل جنزه ، وكان محبا في الجهاد ، فعزم على غزو الأندلس ، فدعا برجل اسمه طريف ويكنى أبا زرعة ، فعقد له على أربعمائة رجل ومائة فارس ، وجوزهم إلى الأندلس في أربع سفن برسم الجهاد والتطلع على أحوال الأندلس ومن بها ، فجاز أبو زرعة ، ونزل بطريف ، وبه عرفت طريف إلى اليوم ، فلما نزل بطريف أغار على الخضراء ، فغنم وسبى وقتل ورجع إلى طنجة ، فأخبر طارقا بسعة البلاد وكثرة نعمها وخيراتها ، فأخذ طارق في إنشاء السفن والاستعداد إلى الجـواز إليها - يعني الأندلس - برسم غزوها ، فجاز إليها في شهر رمضان المعظم من سنة اثنتين وتسعين للهجرة في جيش من اثني عشر ألف مقاتل : عشرة آلاف من البربر والفين من العرب وسبعمائة من السودان .... وقيل إنه لما جاز طارق وجيوش المسلمين نزلوا في أصل جبل طارق ، وهو جبل الفتح ، ثم صعد إلى الجبل فبنى بقمته حصنا منيعا ، فتحصن به هو ومن معه من المسلمين » .

على هذا لم تكن العملية مغامرة فيها تغير ، بل تمت وفقا لتحضير طويل ، ففي طنجة تعرب الجند البربر وحسن إسلامهم ، وجازوا إلى الأندلس ومعهم الفين من العرب وسبعمائة من السودان ، وذكر السودان له دلالاته التي قد تفيد أنهم قد جندوا من أطراف السوس الأقصى أو غير ذلك من الأطراف ، وأنه تتوفر لدى المسلمين ما احتاجوا إليه من وسائل العبور .

هذا وفي بعض مصادرنا العربية المتأخرة ، خاصة نفح الطيب للمقري ان طارقا عبر مع جنده على سفن قدمها له يوليان ، وبعد العبور قام طارق بخرق السفن أو بخرقها ، ثم وقف بجنده خطيبا بعربية على درجة عالية من الوضوح والفصاحة ، وكان مما قاله : « البحر من

وراءكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر » .

وشكك الباحثون في إيماننا في صحة هذه القصة وقالوا إنها مصنوعة ، ولعل صانعها استعارها من قصة مشابهة وردت في الأغاني في أثناء الحديث عن غزو الأقباش لليمن ، هذا وإن كنا نشكك بصحة حرق السفن أو خرقها لانسبت بعد قيام طارق بالخطبة في جنده ، لأن الجيوش الإسلامية كان من عاداتها وجود المذكرين فيها ، وقيام الخطباء بحض الجند وتشجيعهم وشحنهممهم ونقرأ في سراج الملوك للطرطوشي ، وهو مؤلف أندلسي صنف كتابه في مصر في القرن الخامس هـ / الحادي عشر للميلاد : « ولما عبر طارق مولى موسى بن نصير إلى بلاد الأندلس ليفتحها ، وموسى إذ ذاك بإفريقية ، خرجوا في الجزيرة الخضراء وتحصنوا في الجبل العظيم ، فطمعت الروم فيهم .... ولقيهم طارق ، وعلى خيله مغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك ، فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال ، فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة ، فقام فحضرهم على الصبر

ورغبهم في الشهادة وبسط في آمالهم ثم قال : أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، فليس إلا الصبر منكم ، والنصر من ربكم ، وأنا فاعل شيئاً فافعلوا كفعلتي ، فوالله لأقصدن طاعيتهم فإما أن أقتله وإما أن أقتل دونه ، فاستوثق طارق من خيله ، وعرف حلية لذريق وخيمته وعلامته ، ثم حمل مع أصحابه عليه حملة رجل واحد ، فقتل الله لذريق بعد قتل ذريع في العدو ، وحمى الله المسلمين فلم يقتل منهم كثير شيء ، وانهزم الروم » .

ومهما يكن من أمر لقد نزل طارق في جنوبي الأندلس في نيسان ، أو مايس من سنة ٧١١ م ، وكان التوقيت قد اختير بشكل دقيق ، فقد كان رودريك آنذاك غائبا في الشمال ومعه قواته ، وقد خلف وراءه بعض الحراسة على الشاطئ ، يقول ابن الكردبوس : في نص فريد : « ووجد بعض الروم وقوفا في موضع وطىء كان قد عزم على النزول فيه إلى البر ، فمنعوه منه ، فعدل عنه ليلا إلى موضع وعر

فوطاه بالمجاذف وبراذع الدواب ، ونزل منه في البر وهم لا يعلمون ،  
فشن غارة عليهم وأوقع بهم وغنمهم ورحل نحو قرطبة».

وهكذا تمكن طارق وجنده من تأسيس قاعدة لهم في منطقة  
الجزيرة الجنوبية ، وشرعت القوات المسلحة في أعمال الاستطلاع  
البعيدة والاغارة على المناطق الداخلية ، وبذلك انتشرت أخبارهم في  
أرجاء شبه الجزيرة كلها ، وحين سمع رودريك بخبر طارق أسرع  
نحو الجنوب فالتحم مع المسلمين في معركة في ١٩ تموز ، أي بعد  
انقضاء قرابة الثلاثة أشهر على جوارهم ، وهي فترة لا شك أنها  
كانت كافية بالنسبة لهم لإكمال خططهم ومشاريعهم وجلب النجدة  
والمؤن والمعدات وشراء الأعوان أو العملاء .

واستمر القتال بين رودريك والمسلمين قرابة الأسبوع ، وتعرف  
المعركة باسم معركة وادي لكة - أي وادي البحيرة - ويقال إن  
قسما من جنده تخلى عنه أيام القتال ، وكانت المعركة معركة حامية  
اقتتل فيها الطرفان «قتالا شديدا ، فوقع الصبر حتى ظن الناس أنه  
الفناء ، وتواخذوا بالأيدي ، وضرب الله عز وجل وجوه  
أعدائه ، فانهزموا ، وأدرك لذرير فقتل بوادي الطين وركبت  
أثارهم ، وكان الجبل وعرا ، فكان البربر أسرع منهم على  
أقدامهم ، ووضعوا فيهم السيف» لعدة أيام فأبادوهم .

لقد قضى طارق في هذه المعركة على القوة العسكرية الرئيسية  
للفيرقوط ، كما دمر نظامهم وأجهز على جهاز مؤسسة الحكم في  
شبه الجزيرة الأيبيرية ، ولا شك أنه لاحظ أن الأندلس أصبحت بلدا  
مفتوحا أمامه ، لن يحول بينه وبين تملكها قوة لها أثر يذكر ، فاندفع  
أولا نحو مدينة قرطبة فأخذها ، ثم قرر الاندفاع نحو طليطلة  
عاصمة البلاد ، وأهم المراكز الاستراتيجية فيها ، ونال في تلك  
الأثناء بعض المساعدات المحلية ، كما واجه بعض المقاومة ، واحتل  
طارق طليطلة دون مقاومة كبيرة ، وبعد ذلك أرسل بعثات  
استطلاعية نحو سرقسطة .

وكان موسى بن نصير يتابع أخبار طارق ، وقد اتخذ استعداداته

للتدخل ، وهكذا عندما بلغه ما تحقق لطارق من انتصارات تحرك هو بدوره من إفريقية نحو طنجة ، ثم عبر على رأس قوة عربية قوامها ثمانية عشر ألفا من الرجال ، وكان ذلك في تموز سنة ٧١٢ م ، وهنا لم نسمع بأخبار مشكلة تعلقت بوسائل العبور من سفن وسوى ذلك .

واندفع موسى نحو مدينة اشبيلية فافتتحها بعد مقاومة ، ثم افتتح مدنا أخرى صغيرة ، وبعد ذلك اتجه شمالا ضد بقية من القوط كانت قوية تجمعت بعد انسحابها في ماردة ، حيث تحصنت وظلت تقاوم الحصار الاسلامي حتى يوم الفطر لسنة ٩٤ هـ - ٣٠ حزيران لسنة ٧١٣ م .

وبعد ما اتجه موسى نحو ماردة يرجح انه التقى بطارق ، ولعل هذا اللقاء وقع في جهات طليطلة ، وتعطي مصادرنا هذا اللقاء لونا دراميتيكيا خاصا ، حيث تذكر غالبيتها أن موسى عاتب طارقا ووبخه ، لابل عاقبه بضربه ، ويبدو أن شيئا من هذا القبيل لم يحصل ، وكل الذي كان لم يتجاوز عتاب لطارق على توغله دون الوقوف عند أوامره ، فترضاه طارق بقوله «إنما هذا الفتح لك وإنما أنا مولاك» ، فقبل موسى منه ، وسار بعد ذلك الاثنان الى طليطلة حيث أمضيا شتاء ٧١٣ - ٧١٤ م ، وفي هذا الوقت بالذات بدأت أولى الأعمال التنظيمية للبلاد المفتوحة ، وضرب موسى أول النقود الاسلامية في أوروبا .

ومن طليطلة أرسل موسى التابع علي بن رباح مع مولى الخلافة مغيث الرومي الى دمشق ليخبر الخليفة الوليد بن عبد الملك بأخبار الفتح ، وفي السنة التالية سار موسى ومعه طارق شمالا فافتتحا سرقسطة ، ومن المحتمل انهما أرسلتا من هناك حملة استكشافية وصلت حتى أربونة ، لأن المملكة الفيزقوتية كان من ضمنها أراضي من جنوبي شرقي فرنسا ، بما في ذلك أماكن واقعة على البحر المتوسط .

ويبدو أن موسى ارتأى هنا أن مشاكل المناطق الغربية لشبه

الجزيرة الايبيرية كانت اكثر الحاحا واهمية ، ولهذا تحرك نحو هذه المناطق فتوغل في منطقة أستوريش الساحلية ، وكان في تلك الاثناء قد قام طارق باحتلال ليون واستورقة كما اخضع ارغون ، وتشير بعض المصادر الى ان موسى اخذ يعد العدة للتوغل في داخل اوروبا ، وذهب بعض المعاصرين الى القول انه كان في راسه خطة للوصول الى القسطنطينية وحصارها وبالتالي فتحها ، يقول المؤرخ الفرنسي رينو في كتابه عن غزوات العرب وفتوحاتهم في فرنسا وايطاليا وسويسرا : « ان خطة موسى بن نصير كانت تقضي بان يعود هو وجيشه الى دمشق عن طريق المانيا ومضيق القسطنطينية واسيا الصغرى بحيث يحيط بالبحر الأبيض من كل جانب ويصبح بحيرة اسلامية تسفر طرق المواصلات بين مختلف الولايات الاسلامية » .

وهناك من يرى ان هذا القول ضرب من الخيال يشير بالبنان الى جهل القائلين فيه بجغرافية اوروبا ، ولاشك ان موسى كان يعرف مآلديه من قوات ، وكان لايعرف ما وراء البيرنيه من اراضي وشعوب ، ولا يدرك مدى قوتها .

ومع قوة هذه الحجة ، علينا ان نتذكر انه بعد موسى بعدة قرون تمكنت جحافل الصليبيين من العبور من اوروبا الغربية ووصلت الى فلسطين على الرغم مما لاقته من مقاومة ، اضف الى هذا انه إثر وفاة الوليد بن عبد الملك ارسل اخوه وخليفته سليمان حملة برية وبحرية لحصار مدينة القسطنطينية ، ومما لاشك فيه ان قطع الاسطول التي اشتركت في هذه الحملة مع المعدات وربما القوات جرى اعدادها منذ أيام الوليد ، ففكرة الفتح هذه كانت موجودة ، ثم ان امتلاك المسلمين للمعلومات الكافية عن اوضاع اوروبة امر لاريب فيه ، لهذا يمكننا ترجيح امكانية تفكير موسى بمتابعة الفتح ، ويقول رينو : « من المؤكد ان المسيحية قد واجهت أعظم الخطر في ذلك الوقت ، وإن المرء ليرتعش عندما يفكر فيما كان يمكن ان يحدث لو لم يقع الشقاق في وقت مبكر بين المنتصرين » .

وقصد رينو هنا بمسألة الشقاق ، ماروى عن حدوث خلافات بين موسى وطارق ثم المشاكل التي وقعت فيما بعد في بداية عصر الولاة ، وتذكر المصادر العربية أن موسى بعدما « انتهى الى أربونة أراد لقاء ملك افرنجة ، فأخذ حذش الصنعاني - وكان من كبار التابعين - بلجامة وقال سمعتك أيها الأمير تقول حين فتحت طنجة : لم يكن لعقبة ولا لأبي المهاجر من ينصحهما ، حتى أتيت انصحك اليوم ، فارجع فقد توغلت بالمسلمين » .

ولاشك أن رينو ارتعش تعصبا ، مع أن عدم فتح أوروبا حرما من نعمة نور التوحيد والحضارة والقيم الاسلامية وإبقاها تعيش في ظلام العصور الوسطى لقرون مديدة ، أضف الى هذا أن جل أوروبا لم يكن مسيحيا بعد بل كان وثنيا .

والذي حدث أنه في نهاية صيف ٧١٤ م تم استدعاء طارق وموسى الى دمشق ، ونحن لانملك معلومات مؤكدة عن أسباب هذا الاستدعاء ، ويرجح أن الوليد بن عبد الملك أراد أن يعرف من موسى اخبار ما فتح الله على المسلمين ، ويدرس معه خطط المستقبل ، ولعله أراد أيضا أن يحاسبه على ما حصله من غنائم وما انفق ، يضاف الى هذا لعل الوليد خشي من النزعات الاستقلالية لدى موسى ، خاصة بعد ما راه يعين ولده عبد الله على افريقية ولده عبد الملك على المغرب ، ثم ولده عبد العزيز على اشبيلية ليحكم شبه الجزيرة الايبيرية منها ، وبعد ما سمع عن تصرفات موسى التي تشابه تصرفات الملوك وعن انفاقه كميات كبيرة من الأموال ، متذكرين في هذا المقام أن موسى كان زبيري الهوى ، شارك في معركة مرج راهط ضد مروان بن الحكم .

خلاصة القول سار موسى مع مولاة طارق من شبه الجزيرة الايبيرية في خريف ٧١٤ م ، وكان بصحبته قافلة كبيرة أفرط الكتاب العرب في وصف ما حوته من أموال وتحف وجواهر وجوار حسان وزعماء بربر وقوط واسبان

وتتحدث المصادر غير الشامية أنه بعد ما جاوز موسى مصر وكان

«بالعريش جاءه كتاب الوليد يستعجله ، وجاءه كتاب سليمان يأمره بالتربص ، وكان سليمان ولي عهده ، وكان الوليد مريضاً بدير من غوطة دمشق ، فأسرع موسى ولم ينظر في كتاب سليمان ، ودفع الأموال الى الوليد ... فلما رأى ذلك طارق دخل على الوليد وهو مريض ... واخبره ان موسى تعدى في أموال المسلمين وانفقها ... فصدقه الوليد ... وكذب موسى وأمر بحبسسه ... ولم يلبث الوليد الا ثلاثة أيام حتى مات ..

وبويع لسليمان بن عبد الملك بالخلافة حين توفي الوليد ، فسخط على موسى ، وقال له : يا يهودي كتبت اليك فلم تنظر في كتابي ، هلم مائة ألف ، قال : يا أمير المؤمنين قد أخذتم جميع ما في يدي ، فمن أين لي بمائة ألف ؟ قال : لا بد من مائتي ألف دينار ، فاعتذر اليه ، فقال : لا بد من ثلاثمائة ألف ، وأمر بتعذيبه ، وعزم على قتله ، فلجأ موسى بن نصير الى يزيد بن المهلب فاستجار به ، وكانت ليزيد ناحية من سليمان فاستوهمه دمه ، فقال : يؤدي ما عنده» .

والثغرات في هذه الرواية عديدة ، فمحورها من حيث المبدأ مسألة الخلاف بين طارق وموسى ، ومحاولات طارق للانتقام من موسى باتهامه بالتصرف بالأموال وغير ذلك ، ثم كيف لنا ان نصدق توقعات سليمان بن عبد الملك وفاة الوليد الذي كان دون الخمسين من عمره ، الا اذا اعتقدنا بأنه تأمر على حياته ، وهذا ما لم يرد ذكره ، أضف الى هذا ان سليمان بن عبد الملك الذي كان يعيش في فلسطين بعيداً عن دمشق لم يملك جهازاً ادارياً ولم يتمتع بأية صلاحيات حتى يرأس الولاية والقادة ويتدخل بشؤون الخلافة ، وأكثر ثقة من هذه الرواية ما أورده ابن عساكر في تاريخه في ترجمته الموسعة لموسى ، قلت أكثر ثقة لأن موسى قضى السنوات الأخيرة من حياته في دمشق ، والمصادر الشامية لهذا مرجحة على غيرها ، وفي رواية ابن عساكر ليس لطارق بن زياد سوى إشارة عرضية ، ولم يعرف رواة ابن عساكر على كثرتهم وقدمهم شيئاً عن خلاف بين طارق وموسى ، أو عن كتابة سليمان لموسى وغير

ذلك ، فهناك اجماع على أن موسى « سار متوجها الى الشام حتى قدم على الوليد وتحين يوم الجمعة ، فلما جلس الوليد على المنبر أتى موسى بن نصير وقد البس ثلاثين رجلا تيجانا على كل رجل منهم تساج وثياب ملك ذلك التساج ، ثم دخلوا المسجد في هيئة الملوك ، وأمر بملوك الجزائر أكابر الروم فهينوا وأبناء ملوك البربر وملوك الاسبان ، وأقبل موسى بن نصير بالثلاثين الذين البسهم التيجان حتى دخل بهم مسجد دمشق والوليد يخطب ، فلما راهم نهض اليهم ، فأقبل حتى سلم على الوليد ، ووقف الثلاثون على يمين المنبر وشماله بالتيجان ، فأخذ الوليد في حمد الله والثناء عليه والشكر بما أيده وفتح عليه ونصره ، فأطال حتى فات وقت الجمعة ، فصلى وانصرف ، وأجاز موسى بجائزة عظيمة ، وأقام موسى بدمشق حتى مات الوليد » .

ويرجح أن وصول موسى الى دمشق قد كان بعيد اكتمال بناء الجامع الأموي ، هذا ولم يترجم ابن عساكر لطارق بن زياد ، غير أنه ذكر أن سليمان بن عبد الملك طالب موسى ابن نصير ببعض الأموال وعندما حج سليمان سنة سبع وتسعين ، حج معه موسى ، فمات موسى بالمدينة في هذه السنة ، وقيل توفي بوادي القرى وهو ابن ثمان وسبعين سنة ، وذلك أنه ولد سنة تسع عشرة .

هكذا كانت نهاية موسى ، ولاندري بشكل أكيد ما حل بطارق ، ولاشك أن الزمن قد طواه بعدما طوى موسى لكن ما كان للتاريخ أن يطوي أخبار جليل ما حققاه من فتوح (١٤) -

### عصر الولاة:

دعا العرب البلاد الجديدة التي فتحوها باسم الأندلس ، وكما سلف بي القول يعتقد أن هذا الاسم صمد عن كلمة Vandalicia نسبة الى الغزاة من قبائل الفندال ، وقد استخدم هذا ليشمل ما فتحه العرب وحكموه من شبه



الجزيرة الايبيرية ، وهو يطلق الآن على الجزء الجنوبي الشرقي من اسبانيا حيث عاش بقية العرب في الفترة ما بين القرن الثالث عشر والخامس عشر م.

وجادل بعض الذين بحثوا في تاريخ الاندلس وقالوا إن العرب لم يتركوا الاندلس بعدما فتحوها ، الأمر الذي تخيله بعض الذين دعواهم اليها وحرصوهم على فتحها ، واثارة هذه المسألة فيها مغالطة وتشويه فالعرب ذهبوا الى الاندلس فساتحين مجاهدين في سبيل الله ولم يذهبوا كمرتزقة ، وليس في تاريخهم ما يشير الى أنهم تقبلوا فكرة الارتزاق ، والذي أشرف على فتح الاندلس هو الخلافة الأموية التي كانت أعظم دولة في عصرها وأكثرها رقيا وتنظيما وثقافة ، لهذا تحولت الأراضي المفتوحة في شبه الجزيرة الايبيرية لتشكّل جزءا من ولاية من ولايات دارالاسلام ، وقاعدة لمزيد من الفتوح في أوروبا الغربية وجزائر المتوسط ، والولاية التي غدت الاندلس جزءا منها هي ولاية إفريقية أو المغرب ، وشملت الآن الشمال الأفريقي مع شبه جزيرة ايبيريا ، وكانت الدولة العربية دولة تمتد من حدود الصين الى شواطئ عدن ، ومن شواطئ المتوسط في بلاد الشام حتى جنوب فرنسا ، وكانت هذه الدولة الشاسعة هي التي جمعت لأول مرة في التاريخ أراضي وشعوب من القارات الثلاث للعالم القديم تحت لواء أسرة واحدة وعقيدة توحيد واضحة الأسس والمعالم ولغة مقدسة فيها حيوية وامكانات للعباء غير محدودة ، محققة بذلك للمرة الاولى الأممية العقائدية.

ومعروف أن هذه الدولة قد أديرت من قبل خليفة كان مقره الرسمي مدينة دمشق ، لكن على الرغم من ذلك ، ولأسباب عديدة ، كان بلاط هذا الخليفة متحركا ، وكان النظام الاداري لهذه الدولة بسيطا في طور التطور ، لكن بكفاءة عالية وحزم وسداد ، وكان كل شيء في هذه الدولة الشاسعة متعلقا بالخليفة ، وتميز الخلفاء من بني أمية بشكل عام بالرجولة وبالقدرات الادارية والسياسية المتميزة وكان لكل منهم جهاز

استشاري واسع الخبرة والفهم ، ومع هذا تأثر اشراف الخليفة على الادارة والسلطات في الولايات بطبيعة العصر وبما تولد عن احوال المواصلات وعن حال العلاقات بين الخليفة وبين القوى الفعالة التي احاطت بعرشه ، أو كان لها وزنها السياسي والعسكري ، وأعني بهذا القبائل العربية واشرافها ، ولم يسد الوئام بين هذه القبائل وعاشت دوما في صراعات أطلق عليها اسم العصبيات القبلية.

وعين الخلفاء عددا من الأعوان لممارسة بعض الوظائف المختلفة بالدولة ، وكان أهم هذه الوظائف وظيفة أمراء الجند ، وكان قائد كل جيش يتحول بعد انتهاء عملية من عمليات الفتوح قام بها ، الى حاكم مدني يعاونه جهاز اداري يتولى أمور المال والقضاء وغير ذلك من الوظائف ، وكانت الخلافة تعين احيانا الجبسة والقضاة ، او تترك امر تعيينهم الى القادة ، وكان كل واحد من هؤلاء القادة يعرف بالعامل أو الوالي ويحمل لقب أمير ، ونظرا لطبيعة الدولة والعصر كان كل واحد من الولاة حاكما مستقلا الى أبعد الحدود. وفي الدولة الاسلامية منح حق المواطنة للمسلمين ، وعرفت الجماعات غير المسلمة باسم الذمة ، وكان للذمة اوضاع خاصة وادارة شبه ذاتية ، فقد أديرَت الشؤون الداخلية لكل طائفة من طوائف الذمة من قبل رئيس الطائفة ، الذي غالبا ما كان رجلا دينيا ، وكان على كل فرد من أهل الذمة دفع ضرائب محددة عن النفس والأموال مقابل حماية الدولة له ورعايته من جميع الجوانب.

وشكل العرب نواة المسلمين في كل ولاية جديدة ، وكان هؤلاء العرب بالوقت نفسه هم الجند ، وعلى هذا غالبا ما انحصر حق المواطنة في كل ولاية جديدة بالعرب ، والمستعرض لتاريخ الولايات الشرقية وغيرها يرى كم هو حجم المشاكل التي قد تولدت بعد دخول اعداد من السكان المحليين في الاسلام ومطالبتهم بحقوق المواطنة الكاملة.

وكان لكل واحد من الجند وعبالاته عطاء خاص كان هو الأعلى في

العالم في حينه وذلك مع نصيب محدد شرعيا في الغنائم ، كما كان يحق للحاكم منح - أو اقطاع - بعض الأراضي ذات الوضع الخاص للمسلمين ، وعلى هذا شكل العرب منذ البداية شريحة عليا في السلم الاجتماعي في كل ولاية واستمروا كذلك حتى بعد توقف حركة الفتوحات ، حيث حازوا ملكيات الكثير من الأراضي الغنية ، وتحول الأشراف منهم الى ملاك كبار ، وحين صار قادة الجند - مع بعض الجند - ملاكا انصرفوا عن التفرغ لخدمة مهنتهم الأولى ، وغدا العطاء بالنسبة اليهم ليس بذى بال أو كبير اعتبار ، وبات كل واحد منهم يعمل جاهدا في سبيل زيادة رقعة أملاكه على حساب أملاك غيره ، وخلق هذا تنافسا أو صراعا داخليا صرف الطاقات نحو الداخل وحولها عن الخارج .

وجعل ما ناله الجند وما تمتعوا به رجالات هذه الفئة لا يشجعون سكان البلاد المفتوحة على الدخول في الاسلام ، لا بل وجدت حالات حيل فيها دون الدخول بالاسلام ، وقد دفع تملك الأراضي الجند الى سكنى المدن ، ونظرا لاستمرار الحاجة الى جيش وقوات مقاتلة فقد قام مبدا قبول تجنيد غير العرب في الجيش إنما على أساس قساعة الولاء ، فقد بات على غير العربي أن ينال النسب العربي بعد دخوله بالاسلام على أساس عربي اسمه الولاء وكان الولاء موجودا قبل الاسلام ، ثم تطور بعده تطورا خاصا ومنح الولاء والاسلام المولى حق المواطنة إنما بدرجة أدنى من درجة المسلم العربي الصريح ، ونشد الموالي رفع درجتهم وطالبوا بالمساواة ، وكانت هناك حركات وثورات سعت نحو هذا الهدف .

وإذا كانت هذه الحالة العسامة في جميع ولايات الدولة الأموية ، فإن الحالة في الأندلس قد اختلفت بعض الشيء ، ذلك أن كل من موسى وطارق بن زياد كانا من الموالي والجيش التي تولت فتح الأندلس كانت عربية وبربرية وهكذا كان الفتح اسلاميا صرفا ، فأكثرية الذين تحملوا أعباء الفتح الأولى كانوا من البربر ، وجاءت أكثرية العرب فيما بعد لتشترك في قطف

الثمار ، وهكذا اضطر العرب منذ البداية لمشاركة البربر ، وعليه صارت أسس الصراعات الأولى ليس صراعا عربيا عربيا على قاعدة العصبية ، بل صراعا عربيا بربريا ، ثم ترافق هذا بصراع عربي عربي على قاعدة العصبية ، وكان لهذا دوره المقرر لمصير الوجود الاسلامي في أوروبا ، يضاف الى هذا إن أوضاع بلاد الأندلس الخاصة وما أحاط بها من قوى فرضت على العرب اعطاء بعض التنازلات حتى وإن خالف ذلك الرائج من احكام الاسلام وقواعده ، فبعد ما نزل العرب في شبه الجزيرة الايبيرية تعذر عليهم في البداية فتح مدينة المرسية التي عرف صاحبها آنذاك باسم تدمير Theodemir ، وقاوم تدمير إلعرب ورفض الدخول بالاسلام ، كما رفض دفع الجزية وقبل حكم السيف ، وبعد ما هزمه العرب لم يعاملوه معاملة المهفور بل عقدوا معه معاهدة سنة ٧١٣ م تعهد المسلمون بها بالمحافظة له على نفسه وماله مع نفوس رعيته وأموالهم مع السماح بممارسة الحرية في العقيدة والعبادات.

وكان سليمان بن عبد الملك قد عزل ولاية الوليد بن عبد الملك واستبدلهم بولاية جدد وهكذا عزل موسى بن نصير وعين مكانه محمد ابن يزيد مولى قريش واليا على افريقية ، ويروى أنه بعدما تسلم ابن يزيد منصبه كتب سليمان اليه «أن يأخذ آل موسى بن نصير وكل من التبس بهم حتى يوفوا ثلاثمائة ألف دينار ، ولا يرفع العذاب عنهم ، فقبض على عبد الله بن موسى فحبسه في السجن » ثم قتله بناء على تعليمات أخرى وردت اليه من الخليفة.

وكان عبد العزيز بن موسى يحكم الأندلس منذ رحيل أبيه ، وقد اتخذ عبد العزيز اشبيلية قاعدة لحكمه متخليا بذلك عن طليطلة العاصمة القوطية للبلاد ، وذات أفضل موقع حصين متوسط لحكم شبه الجزيرة الايبيرية ، وقام عبد العزيز بأكمال أعمال أبيه الحربية في الأندلس ، كما اكمل تنظيمات الولاية الادارية ، وتذكر مصادرنا أنه تزوج بامراة فيزقوطية اختلفوا في تحديد اسمها

الحقيقي ، واتفقوا على أنها عرفت باسم « أم عاصم » وذهب بعضهم الى القول إنها كانت أرملة رودريك الملك الفيزقوسى المقتول ، وقال بعضهم الآخر إنها كانت أبنته ، ومهما كان وضع هذه المرأة ومنزلتها الاجتماعية ، إن زواج عبد العزيز منهالة عدة دلالات اولاهما أن العرب الذين عبروا الى الأندلس فاتحين لم يجلبوا معهم اهلهم أو زوجات لهم ، أي أن الفتح هنا تميز عن سواه في أنه لم يأخذ شكل هجرة بشرية ، وعلى هذا تزوج الجند العرب من نساء الأندلس المحليات ، وسيكون لهذا أثاره الواضحة على حوادث مستقبل الأندلس والتكوين الاجتماعي هناك.

وقيل « بلغ عبد العزيز بن موسى ما نزل بأبيه وأخيه وأهل بيته ، فخلع طاعة بني مروان وخالفهم ، فأرسل إليه - سليمان - يتهده فلم يرجع الى الطاعة »، وهنا راسل سليمان وجوه العرب في الأندلس وطلب منهم قتله ، فاغتاله احدهم وهو يؤدي صلاة الصبح ، وكان ذلك في سنة ٩٧ هـ - ٧١٦ م .

وانهى اغتيال عبد العزيز بن موسى مرحلة الفتح من تاريخ الأندلس وأبتدا مرحلة جديدة عرفت باسم عصر الولاة ، وقد دام هذا العصر أكثر من أربعين سنة توالى على الحكم خلالها قرابة العشرين من الولاة ، حكم بعضهم أكثر من مرة ، وفقط ثلاثة منهم حكم كل واحد منهم لمدة زادت على خمس سنوات ، وكانت ولاية بعضهم قصيرة جدا ومؤقتة حيث غالبا ما تسلموا مناصبهم بعد مصرع أحد الولاة المعينيين في حرب خارجية جهادية أو في فتن اهلية ، وقد تبع هؤلاء الولاة والي القيروان وارتبطوا به لكن نظرا لبعد الشقة ما بين الأندلس والقيروان عاش هؤلاء الولاة في الأندلس شبه مستقلين ، لكن هذا الاستقلال لم ينج ولايتهم من انعكاسات ما كان يجري في الشمال الأفريقي بشكل خاص وفي دار الخلافة بشكل عام ، ومع أن الفتح الاسلامي للأندلس قد ربط هذا الجزء الأوروبي بعالم المشرق الآسيوي إلا أنه استمر يتأثر من جميع الجوانب بما كان يجري في الغرب ويؤثر فيه. وعندما اغتيل عبد العزيز بن موسى لم يكن قد تم للمسلمين إخضاع جميع أجزاء شبه الجزيرة

الايبيرية ، ففي الشمال الغربي من البلاد بقيت مساحات واسعة لم يدخلها العرب ، كما أن بعض أطراف البلاد كان الحكم الجديد فيها غير راسخ القواعد ويحتاج إلى تدعيم .

هذا ولما كان الفتح الاسلامي في الأندلس لم يمر دون إحداث أصداء واسعة في الغرب مع ردادات فعل عنيفة ، فقد كان على ولاة الأندلس بعد عبد العزيز أن يكملوا السيطرة على أراضي شبه الجزيرة الايبيرية ، وأن يدعموا الحكم الاسلامي حيثما كان ضعيفا وكان عليهم تمدين الوشائج ووسائل التعاون مع الشمال الأفريقي وبقيّة أجزاء العالم الاسلامي بشريا واقتصاديا وعسكريا بالدرجة الاولى ، لأن إمكانيات العالم الاسلامي وحدها هي التي كانت كافية لمواجهة إمكانيات أوربا الغربية ، فقد توجب على مسلمي الأندلس متابعة أعمال الفتوح المنظمة الهادفة أو على الأقل التصدي بالهجمات الوقائية لردات فعل أوربة الغربية التي كانت قد شرعت منذ بعض الوقت في اكتشاف نفسها والتحول من بلاد محور الحياة فيها حوض البحر المتوسط إلى بلاد تتجه نحو الشمال ونحو شعوب الشمال ذات الامكانيات القتالية الهائلة ، يضاف إلى هذا كله كان على حكام الأندلس مواجهة مشاكل إنشاء مجتمع إسلامي جديد في جزء من أوربا الغربية . (١٥) ،

وسنرى أن ولاة الأندلس قد عجزوا عن إكمال الفتح ، كما أنهم لم يستطيعوا تحقيق النجاح في التوغل داخل أوربا ، فكان ذلك من مقدمات الخسران وفقدان الأملاك .

وبعدما اغتيل عبد العزيز بن موسى قدم أهل الأندلس أيوب بن حبيب ، وكان ابن أخت موسى بن نصير ، قدموه ليؤمهم في الصلاة ويدير أمورهم ريثما يصلهم عامل معين بصورة رسمية من قبل والي إفريقية ، وبقي أيوب في منصبه بضعة أشهر إلى أن وصل الحر بن عبد الرحمن الثقفي في ذي الحجة من سنة ٩٧ هـ - آب ٧١٦ م ، ولعل أهم ما حدث أيام أيوب هو تحويل مركز إدارة الأندلس من إشبيلية إلى قرطبة ، وحين فعل العرب ذلك كانوا يحدد مصيره في أي بقعة من الأرض سيكون .

وشغل الحر بن عبد الرحمن الثقفي منصبه حتى رمضان سنة ١٠٠ هـ - نيسان ٧١٩ م ، ويبدو أن ما من شيء له أهميته قد وقع في عصره ، وقد جاءت نهاية ولايته في موكب التغيرات التي المت بالدولة الأموية بعد موت سليمان بن عبد الملك وتسلم عمر بن عبد العزيز لمنصب الخلافة ، وقام عمر بن عبد العزيز بفصل الأندلس عن ولاية إفريقية حيث جعلها ولاية تتبع دار الخلافة مباشرة ، وعين عليها السمع بن مالك الخولاني « وأمره أن يحمل الناس على طريق الحق ولا يعدل بهم عن منهج الرفق ، وأن يخمس ما غلب عليه من أرضها وعقارها ، ويكتب إليه بصفة الأندلس وانهارها ، وكان رايه نقل المسلمين منها وإخراجهم عنها لانقطاعهم عن المسلمين ، واتصالهم بأعداء الله الكفار ، فقليل له إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها فأضرب عن ذلك » .

وما أن تسلم السمع منصبه حتى أخذ يعمل على توطيد أركان الولاية الجديدة ، والعناية بمدينة قرطبة التي صارت حاضرة لها ، ولعل أهم عمل قام به في قرطبة بناء جسر على نهرها ، على أنه يبدو من مصادرنا أن السمع قد أوقف معظم جهوده على الجهاد في سبيل إكمال الفتح العربي لشبه الجزيرة الأيبيرية ، ولقد تقدم بنا القول إن المملكة القوطية كانت تشمل رقعة كبيرة من جنوبي فرنسا ، وبعدما سقطت هذه المملكة أصبح الجنوب الفرنسي فارغا مع منطقة واسعة حملت اسم « غوثيا » نسبة إلى القوط أو سببثانيا ، واتصلت بما يعرف اليوم بالريفيرا الإيطالية ، وكانت مدينة أربونة ( نربونة ) حاضرتها ، ومن المرجح أن السمع قد استولى على هذه المدينة سنة ٧١٩ م ، وقيل قد فتحت من قبل العرب قبل السمع ، ومن أربونة زحف السمع سنة ١٠٢ هـ - ٧٢١ م ضد مدينة طولوشة ( تولوز ) عاصمة أكتوين وحاصرها مدة شهر وضربها بالمنجنوقات ، وظلت هذه المدينة تقاوم حتى وصل الدوق أود الفرنجي حاكم المقاطعة لنجدتها ، ووقعت معركة صليبية عنيفة كان السمع خلالها يشد من أزر جنده بتلاوته قوله تعالى : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » وكان الرهبان ورجال الدين النصاري يثيرون

حماس اتباعهم بتعاويز وتمائم باركها البابا ، وأصيب السصح أثناء القتال بطعنة أودت بحياته ، ففت ذلك من عضد الجند المسلمين فتراجعوا مرتدين إلى أربونة .

ولم توقف هذه الانتكاسة المسلمين عن العمل في سبيل فتح الأجزاء الجنوبية من فرنسا ( الأرض الكبيرة ) وتابعوا نشاطاتهم من أربونة في عدة محاور ، واندفعوا في وادي الرون ، واستهدفوا بالدرجة الأولى الأديرة ، وروي أنهم وصلوا إلى مقربة سانت جايل ( سيكون كونت سانت جايل صنجيل من أبرز قادة الحملة الصليبية الأولى ) قرب آرل .

ومفيد أن نذكر أنه بعدما نال السصح بن مالك الشهادة اختار الجند عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أميراً مؤقتاً يدير شؤونهم ، حتى يتم تعيين أمير رسمي ، وبقي عبد الرحمن في منصبه المؤقت من كانون الثاني لسنة ٧٢١ م حتى شهر أب من العام نفسه ومرت إثر هذا عشرة أعوام تقلب فيها على ولاية الأندلس سبعة ولاة كان بينهم عبد الرحمن الغافقي للمرة الثانية ، وكان هؤلاء الولاة هم :

١ - عنبسة بن سحيم الكلبي :

من صفر ١٠٣ إلى شعبان ١٠٧ هـ - أب ٧٢١ - كانون ثاني ٧٢٦ م

٢ - عذرة بن عبد الله الفهري :

من شعبان ١٠٧ إلى شوال ١٠٧ هـ - كانون ثاني ٧٢٦ - آذار ٧٢٦ م

٣ - يحيى بن سلمة الكلبي :

من شوال ١٠٧ إلى ربيع الأول ١١٠ هـ - آذار ٧٢٦ - شباط ٧٢٨ م

٤ - حذيفة بن الأحوص :

من ربيع الأول ١١٠ إلى شعبان ١١٠ هـ - شباط ٧٢٨ - تشرين ثاني ٧٢٨ م



٥ - عثمان بن أبي نسعة :  
من شعبان ١١٠ إلى محرم ١١١ هـ - تشرين ثاني ٧٢٨ - نيسان  
٧٢٩ م .

٦ - الهيثم بن عبيد الكنانى :  
من محرم ١١١ إلى ذي  
القعدة ١١١ هـ - نيسان ٧٢٩ - شباط ٧٣٠ م

٧ - محمد بن عبد الله الأشجعي :  
من ذي القعدة ١١١ إلى صفر ١١٢ هـ / شباط ٧٣٠ - نيسان  
٧٣٠ م

٨ - عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي :  
من صفر ١١٢ إلى رمضان ١١٤ هـ / نيسان ٧٣٠ - تشرين أول  
٧٣٢ م .

وفي أيام عذبة استأنف العرب نشاطهم بشدة وحماس أكثر من ذي  
قبل وأرسلوا كتائبهم في مختلف الجهات ، وتميز العرب بالبراعة  
والحذكة ، وأتت المصادر المسيحية على ذكر عدد كبير من الأديرة  
التي استولى عليها العرب أيام عذبة وبعده ، تهمني الإشارة منها  
إلى اسمين هما أسقفية بوي  
وكليرمونت ، CLERMONT فمن كليرمونت دعا البابا  
أوربان الثاني إلى الحروب الصليبية ، وقد أناب عنه أدهم أسقف  
بوي في مرافقة جيوش الحملة الأولى والإشراف عليها .

وعلى الرغم من وفرة أخبار النشاطات العربية في الأرض الكبيرة ،  
فإنهم لم يصرفوا طاقاتهم كلها في سبيلها ، حيث يلاحظ أنه في فترة  
السنوات العشرة التي أشرنا إليها أعلاه عاشت الأندلس في ظل  
بدايات الصراع الدموي بين العرب من جهة والبربر من جهة أخرى ،  
ثم الصراع بين المجموعات القبلية العربية ، وقد تسطّر المستشرق  
دوزي في بحث جوانب هذا الصراع حتى جعل منه محورا أدار عليه  
جميع حوادث تاريخ الأندلس وفسرها ، وقد فات دوزي أن مساعداه

باسم العصبية القبلية ما كان صراعا بين قبائل لاختلاف أنسابها ، بل كان صراعا بين مجموعات من الناس رافقت الفتح واستقرت كل واحدة منها في مكان أو بقعة محددة وادعت لنفسها نسبا جامعا يمت الى احدى القبائل العربية المعروفة ، ولقد قام صراع بين المجموعات المتجاورة بالموطن المتباعدة المصالح من أجل ملكية الأرض ومن أجل السلطة في ولاية الأندلس وفي سبيل المزيد من المراتب .

وفي الفترة ما بين ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولى والثانية دافع أود عن نفسه وعن أراضيه مستغلا أحيانا النزاعات بين العرب والبربر وبين العرب أنفسهم ومساهما فيها أحيانا أخرى ، وخلال ذلك الوقت صنع زواجا « دبلوماسيا » مع عثمان بن أبي نسعة ، حيث زوجه ابنته ، وعقد معه معاهدة سلم ومهادنة أمن بها من غارات العرب ولكن الى حين .

وبعدما تسلم عبد الرحمن الغافقي لمنصبه في الأندلس قام بالطواف على جميع مقاطعات الولاية حيث نظم شؤونها ، وكان عبد الرحمن صاحب كفاءات عالية ، وقد تمتع بسمعة عالية وبشعبية واسعة بين صفوف الأندلسيين لشجاعته وزهده وكرمه ، ولما أدرك عبد الرحمن استقرار أحوال ولايته ، رأى أن يقوم من جديد باستئناف حركة الفتوحات واكمالها ، وذلك انسجاما مع خطط الخلافة آنذاك التي ظهرت بشكل خاص على جبهتي الخزر والأندلس .

وقرر عبد الرحمن الغافقي أن يوجه طاقاته ضد أود ، وبدأ تحركه بأن بعث الى عثمان ابن أبي نسعة ، وكان قائدا لمنطقة الحدود مع أراضي حميه كونت أود ، بعث اليه بأن يشاغل العدو بالغارات الى أن يكون هو قد أطل بمعظم الجيش ، ويروى أن هذا الأمر قد وقع من عثمان موضع الكراهية الشديدة حسدا لعبد الرحمن وضنا بحميه والد زوجته الحسناء التي كان يحبها حتى ما فتوق درجة الهيام ، وعندما وصل أمر عبد الرحمن الى عثمان « وقع في حيص بيص » وراجع الأمير عبد الرحمن قائلا له إنه لا يقدر أن يخفر

جواره ولا أن يخرق العهد قبل انقضاء أجله ، وغضب عبد الرحمن من مراجعة عثمان له ولم يرضه التلکؤ الذي بدا منه ، فأرسل اليه يشدد عليه بتنفيذ أوامره ، وهنا لما قطع عثمان أمله من منع عبد الرحمن عن إشعال الغارة في بلاد أود أرسل الى حميه يخبره بما وقع حتى يأخذ حذره ، ويتخذ لنفسه وسائل الدفاع ، فبلغ عبد الرحمن ما فعله عثمان ، فأرسل جيشا الى مقر عثمان بقيادة واحد من أوثق رجاله وأمره أن يأتيه بعثمان حيا كان أم ميتا ، وبغت الجيش مقر عثمان فهرب في الجبال ومعه بعض أعوانه وزوجته ، واستطاع الجيش ملاحقته وقتله ، وأخذت زوجته الحسناء الى عبد الرحمن ، فكان أن بعث بها الى دمشق.

ولما وصل خبر مصرع عثمان الى كونت أود أيقن أن الحرب واقعة لامحالة ، فتأهب للدفاع ، واندفع عبد الرحمن يقود جيوشه من جبال البيرانية ، فاحتل عددا من المواقع وحصل على كميات من الغنائم ، قالت المصادر الغربية إنها كانت هائلة ، وحاول أود إيقاف الزحف العربي فلاقى الاخفاق ، وهنا التففت مرغما نحو خصمه شمارك مارتل ، الذي عرفه العرب باسم « قارله - كارل » ، وعندما وصل العرب قريبا من تور الواقعة على نهر اللوار ، علم عبد الرحمن أن جيشا عظيما يزحف للتصدي له ، وهنا تفحص عبد الرحمن أحوال جيشه ، وقد بات بعيدا جدا عن قواعده ، فرأى هذا الجيش مثقلا بالغنائم والأعتدة وأن الحفاظ على الغنائم هو الشغل الشاغل للجند ، وأدرك في هذا مخاطر لاحصر لها ، ولعله هم بإعطاء الأمر للجند بتخليف الغنائم الثقيلة وراءهم ، لكنه خشي الفتنة ، ولعدم امتلاكه لقاعدة ثابتة ، ولايثاره الحفاظ على جميع قواته أثر المغامرة ، فتابع الزحف ، وبعدما اقتحم بقواته مدينة تور عسكر على مقربة منها ، وفيما بين تور وبواتيه ناجز عبد الرحمن بقواته شمارل مارتل وقواته ، واستمرت المعركة عدة أيام تخلخل فيها وضع الجند العربي ، لأن قوات شمارل مارتل كانت أكثر عددا ، مرتاحة تقاتل في أراضيها ، وفي اليوم الأخير للقتال دب الخلل وسط الجيش العربي ، وحاول الفرنجة مهاجمة مؤخرة هذا

الجيش ، وهذا القى عبد الرحمن بنفسه في وسط المعركة ، فنال الشهادة ، ومع حلول الظلام توقف القتال ، وعندما حل صباح اليوم التالي فوجىء الفرنجة بمعسكر العرب قائما كما كان ، لكنه خاليا من الجند ، فاعتقدوا أن في الأمر خديعة ، ثم عرفوا فيما بعد أن العرب انسحبوا تحت جنح الظلام ، فاكتفوا بذلك ولم يجربوا ملاحقتهم . هذا ولاقت اخبار هذه المعركة عناية كبيرة من مؤرخي العصر الحديث في أوربا وعدوها احدى معارك التاريخ العالمي الفاصلة ، وقالوا إنها أبقت نصرانية أوربة وحالت دون انتشار الاسلام فيها ، وفي هذا الكثير من التطرف والشمطط ، ذلك أن الفتح العربي كان في كثير من الحالات شيئا وانتشار الاسلام شيئا آخر ، فقد حكم العرب ، وبعدهم بعض القوى المسلمة اقاليم كثيرة لفترات طويلة دون أن يؤدي ذلك الى انتشار العقيدة الاسلامية والأخذ بها.

إن الذي ربحته فرنسا وأوربا هو الحفاظ على حالة التخلف الحضاري والاجتماعي ، وكسبت التعصب واستبداد الكنيسة الكاثوليكية بشؤونها ثم صراعها مع الساسة والملوك والحكام ، ونماء نظام الاقطاع وتحويله الناس الى اقنان.

يضاف الى هذا إن هذه المعركة لم تغلق بوابات فرنسا في وجه العرب ، فقد تابع العرب غزواتهم داخل فرنسا وتوغلوا فيها ، كما أنهم وصلوا الى مابعد بحيرة جنيف في سويسرا ، انما كانت العمليات العربية منذ الآن ، على مستوى صغير ، وبامكانات متدنية ، غير مدعومة من حكومات أو دول قوية كافية الموارد ، ولعل من بين دروس هذه المعركة القاسية أنه من الصعب الحصول على غنائم من فرنسا ، وهنا ينبغى أن نقف قليلا عند مسألة الغنائم ، التي غالى الأوربيون في رفع شأن تأثيرها ، لنبين قائلين إن فرنسا القرن الثامن لم تكن بلدا غنيا أو ناميا يمكن للمغير عليه أن يحصل منه على غنائم ثمينة ، ولم تمتلك الكنايس والأديرة ثروات واسعة ، فعبادة الأيقونات لم تكن قد قامت بعد ، ولم يكن

هنالك ثروات أو ذهب وفضة ومجوهرات ، لقد توفرت امكانات جمع الأرقاء للبيع والاستخدام ، هذا وماكان عرب القرن الثامن - وقد فترت حمية الجهاد في أنفسهم بعض الشيء - ليغامروا داخل فرنسا ويتحملوا الشدائد والمصاعب دونما مقابل وأرباح كبيرة مضمونة ، ولقد أدرك العرب أن نفقات أعمال الفتوح داخل فرنسا أعلى بكثير من المرباح ، لهذا ركزوا اهتماماتهم على بعض المراكز الساحلية ، ثم إن العرب لم يعجبهم مناخ فرنسا البارد ، وأثروا دوما العيش في المناخ المتوسطي ، اضافة الى كل ما تقدم وأعلى أهمية عانى العرب في الأندلس وأفريقيا الشمالية والمشرق بعد معركة بواتيه من مشاكل كثيرة مزقت صفوفهم وششت قواتهم ، وانتشرت الفتنة بينهم ، لذلك لم يحاولوا الثار لما لحقهم في معركة بلاط الشهداء وظلوا يعانون من المشاكل والانقسامات والحروب الداخلية حتى قامت الثورة العباسية ، فنجم عن ذلك تغيير كبير الم بشؤون السلطة في الأندلس ، وانعكس على علاقاتها مع أوربا.

لقد كانت معركة بواتيه أو بلاط الشهداء نهاية لتيار المد العربي الفاتح في فرنسا ، وبعدها تحول اتجاه التيار ، ولم تكن الغزوات التي توغلت بعيدا داخل فرنسا وكذلك سويسرا إلا أمواجا شاربة ذهب قواها وأنهدرت محصلاتها حيث وصلت دون أن تترك أثرا دائما ، وبالمقابل استمر مع الأيام تيار الجزر المعكوس حتى غطى الأندلس بقعة بقعة (١٦).

ولما وصل خبر مصرع عبد الرحمن الغافقي الى مسامع والي افريقية أنفذ عبد الملك بن قطن الفهري واليا جديدا على الأندلس ، وأنفذ معه قوة من خيل ورجل ، وبعث الى الخليفة الأموي يعلمه ويستمدده ، ويبدو أن عبد الملك أخفق في إثارة همم الناس ودفعهم الى الغزو من جديد ، وهنا عزل من منصبه وكان هذا في سنة ١٢١ هـ / ٧٣٩ م ، وعين مكانه عقبة بن الحجاج السلولي ، وتم هذا التعيين من قبل والي افريقية عبيد الله بن الحبحاب.

وكانت جموع كبيرة جدا من بربر المغرب قد دخلت الاسلام ، غير ان ابن الحبحاب أساء معاملة البربر ، فقد كان فظا ثقيلا الضرائب ، شديد التحصيل ، وفي الوقت نفسه انتشرت افكار الدعوة الخارجية بين صفوف قبائل من البربر ، وجاء هذا الانتشار لأسباب عديدة ما من واحد منها كانت مضامينه نزعات استقلالية ، وكان ما ان تهيأت الفرص حتى ثار خوارج البربر سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م بزعامة أحد هم وعرف باسم ميسرة المدغري ، وبذل عبيد الله غاية جهده للقضاء على هذه الثورة واستنجد بوالي الأندلس ، ومع ذلك لاقت جهوده الاخفاق ، وقام بعض خوارج البربر باغتيال زعيمهم ميسرة المدغري وانتخبوا زعيما جديدا اسمه خالد بن حميد الزناتي ، واستطاع خالد هذا الحاق هزائم ماحقة بالقوات العربية التي كانت مرابطة بالمغرب ، وهكذا زالت السيطرة العربية عن معظم اجزاء المغرب ، واضطر ابن الحبحاب الى مغادرة المغرب الى دمشق ، حيث اخبر الخليفة هشام بن عبد الملك بما الت اليه الامور ، فانفعل وتأثر كثيرا حتى قال : « والله لأغضبن غضبة لهم عربية ولأبعثن اليهم جيشا اوله عندهم واخره عندي » .

وكان لثورة البربر في المغرب انعكاسات مباشرة على اوضاع الأندلس ، حيث تأثر بربر الأندلس وقاموا بالثورة بدورهم ، وكان من مسوغات الثورة أنهم تحملوا العبء الأكبر في فتوح الأندلس ، لكن على الرغم من هذا كان مانالوه من ثمرات الفتوح ادنى بكثير مما ناله العرب ، ذلك أنه عندما وزعت أراضي الأندلس على الفاتحين اعطي البربر أراضي جبلية مع بعض الأراضي الواقعة في مناطق الحدود ، هذا في حين نال العرب احسن الأراضي الأندلسية وأكثرها خصبا ، وكانت الأحوال السيئة التي عاشها بربر الأندلس - مقارنة مع أحوال العرب - وراء تحركهم وقيامهم بالثورة .

وكان عقبة بن الحجاج قد قام عند تسلمه لمنصب ولاية الأندلس بايداع سلفه واليها المعزول عبد الملك بن قطن مع أعوانه ومؤيديه السجن ، وقد مثل عبد الملك حزب أهل المدينة المنورة في

الأندلس ، وحين أخفق حاكم المغرب في القضاء على ثورة البربر ، وبعدما أعلن بربر الأندلس ثورتهم ضعف موقف عقبة بن الحجاج ، واصيب عام ١٢٣ هـ / ٧٤١ م بمرض شديد حتى أرجف الناس بموته ، وهنا قامت جماعة الحزب المدني فأرغمته على استخلاف عبد الملك بن قطن ، وهكذا وللمرة الثانية تسلم ابن قطن منصب ولاية الأندلس انما بموجب ارادة قوى أندلسية ، وليس تبعا لارادة والي افريقية او الخليفة الأموي ، وستنمو هذه الظاهرة في المستقبل القريب الى حد قيادة الأندلس الى الانفصال السياسي عن جسم الخلافة .

ومع تسلم عبد الملك لولاية الأندلس استشرت ثورة البربر وكان الخليفة هشام بن عبد الملك قد بعث جيشا كبيرا على رأسه كلثوم ابن عياض القشيري ، وعهد اليه بولاية افريقية ، وأمره أن يعمل على القضاء على الثورة الخارجية فيها ، وزحف كلثوم نحو المغرب وجعل على مقدمة جيشه وعلى الفرسان ابن أخيه بلج بن بشر وكان في بلج رعونة وحمق وتعصب لقومه من قيس ، وقد نجم عن تصرفاته وسلوكه وقوع خلافات بين صفوف العرب من قوات كلثوم وقوات العرب التي بقيت مرابطة في افريقية ، لذلك عندما التقت القوات العربية بقوات الثورة البربرية حلت الهزيمة بالعرب ، وفر بلج مع ما يقارب من عشرة آلاف مقاتل من جنده نحو سبته ، وهناك اتخذ موقف الدفاع . وتحت الحصار ضاقت الحال ببلج وجنده ، وحينئذ طلب بلج من عبد الملك أن يعينه على القدوم الى الأندلس ، ولم يكن ثم من يميل لتلبية مطلبه هذا ، وعبثا حاول استئثار عطفه عليه ، بما كان يذكره في رسائله من أنه هو رفاقه يموتون جوعا في سبته ، وأنهم قبل كل شيء عرب مثله ، فلم يلن بؤسهم قلب ذلك<sup>١</sup> الشيخ المدني العجوز « أعني عبد الملك الذي ربما حمد الله تعالى أن أتاح له ، وهو في التسعين من عمره ، فرصة تذوق لذة الانتقام بمشاهدة أبناء الجفاة القتلة وهم يشرفون على الموت جوعا ، أو ليسوا هم الذين قتلوا في وقعة الحرة رفاقه وأبناء عشيرته ، والذين أوثسوا أن يذيقوه - هو نفسه الموت

بسيوفهم ، والذين نهبوا المدينة المنورة واستباحوها وذنسوا حرمة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ومسجده ، افيطمع أبناء أولئك العتاة الرعناء أن يرق لهم عبد الملك ؟! وهل لروح الانتقام أن تموت عند ذلك المدني ، وهل يمكن لآلام الشامى أن تحرك شفقة من عاش ينتظر يوم الثأر، وهكذا لم يكن لعبد الملك سوى هم واحد ورغبة فريدة ، وشغل شاغل وحيد ، هو الحيلولة بين من هم دونه كراهية لأهل الشام وبين مدهم بالميرة أو أي نوع من المساعدات ، وعلى الرغم مما اتخذته من الاحتياطات ، استطاع شريف رؤوف من قبيلة لخم أن يفلت من رقابته ، وأن يرسي في ميناء سبته مركبين مشحونين بالحنطة ، فلم يكذ يتناهى خبر ذلك إلى عبد الملك حتى قبض على اللخمي الكريم وجلده سبعمائة جلدة ، ثم أمر بسمل عينيه وقتله متهما إياه بتضريب الجند عليه ، ورفعت جثته على سارية وقد صلبوا إلى يمينها كلبا إغالا في النكابة به والشماتة ، وهنا خيل للشاميين أنه قد حكم عليهم بالموت جوعا ، غير أنه جد فجأة أمر لم يكن في الحساب ، أرغم عبد الملك على تغيير مسلكه .

فلقد استشرت ثورة البربر في الأندلس ، وزاد بربر الأندلس حماسا صعبة وضع العرب في المغرب بعد الانتصارات التي حققها البربر هناك «وتخرج موقف عرب الأندلس إذ ذاك ، وأصبح حالهم ينذر بالخطر ، وأوشك ملكهم على الزوال حتى وجد عبد الملك نفسه - على الرغم مما يجيش في جوفه - مضطرا للتماس معونة أهل الشام المحاصرون في سبته ، أهل الشام ذاتهم الذين تركهم حتى هذه الساعة يكابدون مصيرهم التعس دون أن تأخذهم فيهم شفقة أو رحمة ، إلا أنه اتخذ لنفسه الحيلة ، فوعدهم أن ينفذ إليهم مراكب تنقلهم على شرط أن يقطعوا العهد على أنفسهم بمغادرة الأندلس حالما يتم القضاء على الثورة ، وأن يسلمه كل فريق منهم عشرة من شيوخهم يضعهم في إحدى الجزر رهائن تكون رؤوسهم ضمانا لصدق تنفيذ الاتفاق ، واشترط الشاميون من جانبهم على عبد الملك



أن ينقلهم جملة الى افريقية وأن ينزلهم على ساحل ليس للبربر فيه سلطان .»

واقرا الجانبان الاتفاق . وهكذا ابجر اهل الشام من سببة ودخلوا الأندلس «عراة لا يواريهم إلا دوابهم ، وقد بلغ بهم الجهد غايته ، وكانوا نحو عشرة آلاف من عرب الشام ، فلما دخلوا كساهم عرب الأندلس ،» وبعدهما استقر بهم المقام في الأندلس ونقحوا زحفوا ضد البربر فهزموهم في أكثر من معركة ، وغنموا منهم غنائم كثيرة ، وفي تلك الأثناء تعرف عرب الشام على الأندلس ، فأعجبتهم البلاد ، وأعجبهم غناها ، وأدركوا مدى قوتهم وقوة عبد الملك بن قطن .

وما أن تلاشت ثورة البربر في الأندلس وقضى عليها ، حتى طلب عبد الملك من بلج وصحبه تنفيذ الاتفاق ومغادرة الأندلس والعودة نحو افريقية ، وهنا اختلق بلج أسبابا للبقاء والخلاف مع عبد الملك ، وتمكن من الاستيلاء على مقاليد الأمور في قرطبة ، وأودع عبد الملك السجن وأثناء هذا حدث أن مات بعض رهائن الشاميين ، فثار جند بلج ، وأخرجوا عبد الملك من السجن «كانه فرخ نعمة من الكبر ، وهم ينادونه: أفلت من سيوفنا يوم الحرة ، فطلبتنا بثأرنا في أكل الدواب والجلود ثم أردت إخراجنا الى القتل ، ثم قتلوه وصلبوه ، وصلبو خنزيرا عن يمينه وكلبا عن شماله».

ولم يمض حادث استيلاء بلج على السلطة وقتله لعبد الملك دونما جرائر ، فقد انقسم عرب الأندلس الى قسمين متصارعين : شاميين وبلديين قدماء ، وقامت معارك بين الطرفين ، ولقي بلج مصرعه في الحرب ، لكن أصحابه حققوا لأنفسهم النصر ، فاستمروا متسلمين لمقاليد الأمور ، وخلف بلج ثعلبه بن سلامة العاملي ، وكان هذا سنة ١٢٤هـ / ٧٤٢م ، وجاء اختيار ثعلبة بسبب «أن هشام بن عبد الملك كان قد عهد أن يتولى أمر الجيش إذ جهزه من الشام كلثوم ، فان أصيب فابن أخيه بلج ، فان أصيب فثعلبة» ،

واستمرت الحرب الأهلية أيام ثعلبة ، وكانت ساعة صراعا بين العرب والبربر ، وأخسرى بين العرب أنفسهم شماميين وبلديين ، وبقي النصر حليفا للشماميين ، ووقع أثناء هذه الحروب في أيديهم عدد كبير من الأسرى كما أقدم ثعلبة على اقتراف إثم لم يعهده العرب في تاريخهم الا وهو سبي نساء المهزومين واسترقاق أطفالهم ، وكان ذلك حدثا لاسابقة له ولهذا جاء في منتهى الفظاظاة والقسوة .

واخاف تدهور اوضاع الأندلس عقلاء المسلمين من شماميين وبلديين والتمسوا مخرجا لذلك ، فتوجهوا بباصمارهم نحو المغرب ، وكانت الأوضاع قد عادت الى الاستقرار النسبي ، بعدما وجه اليها الخليفة هشام بن عبد الملك حنظلة بن صفوان واليه على مصر ، وحدث ذلك بعد ما بلغه ما صار اليه جيش كلثوم بن عياض ، ولما اتصل عقلاء اهل الأندلس بحنظلة سألوه ان يندب اليهم واليا يكون قادرا على اعادة النظام والأمن والطمأنينة الى الأندلس ، فاستجاب لمطلبهم ، واستعمل أبا الخطار الكلبي حسام ابن ضرار ، ووصل أبو الخطار الى قرطبة على حين غرة ، فالفى ثعلبة بن سلامة «وهو يبيع السبي بالنداء ، ويعبث ويبطر ، فكان يبيع الشيوخ والأشراف ممن ينقص لامن يزيد» .

وتسلم أبو الخطار ولاية الأندلس دونما معارضة ، وقام بمعالجة مشاكل ولايته بأن أنهى الحرب الأهلية ، فنفى عددا من شخصيات القوى المتصارعة وكان من جملة المنفيين ثعلبة بن سلامة ، وأعاد النظر في توزيع أراضي الأندلس على العرب ، فأعطى طالعة بلج الشامية أملاكا أندلسية خاصة ، فصار رجال هذه الطالعة من اهل الأندلس وسكانها الدائمين .

ونجح أبو الخطار في ادارته فجمع سكان الأندلس من العرب حوله ، وكسب طاعتهم ، لكنه لم يتمتع نفسه بذلك طويلا ، حيث ما لبث أن تخلى عن مصالحه ورزاقته وتعصب لليمانية ضد الجماعات القيسية وبهذا أعاد الانقسام من جديد الى صفوف عرب

الأندلس ، وتزعم الجماعات القيسية الصمميلى بن حسانم الكلابى ، وكان حفيدا لشمر بن ذى الجوشن قاتل الحسين بن على فى كربلاء ، وكان اعرابيا عنده عنجفة البداوة وصلفها ، ولم يكن صاحب ثقافة اوحى معرفة بالاسلام ، كما كان لا يحسن القراءة والكتابة ، ويروى انه (مر بمؤدب يقرى ولدا له القرآن فسمع منه الآية : «وتلك الايام نداولها بين الناس» فوقف الصمميلى وقال للمؤدب : نداولها بين العرب ، فقال له المؤدب : «بين الناس» فقال الصمميلى وهكذا نزلت الآية : قال له : نعم ، هكذا نزلت ، فقال الصمميلى : والله انى ارى هذا الامر سيتركنا فيه العبيد والسفالى والارائل) .

وجمع الصمميلى اعوانه من قبائل قيس ، ووثب بسايبى الخطار فانزع منه ولاية الأندلس ، وبعد شى من الفوضى والصراع عين الصمميلى يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، وكان من احفاد عقبة بن نافع ، عينه واليا على الأندلس ، ولم يلق اتباع الحزب اليماني السلاح فخاضوا بزعامة ابي الخطار عدة معارك ضد القيسيين ، كان اشهرها واحدة وقعت سنة ١٣٠ هـ / ٧٤٧م بمكان عرف بشقندة ، وكان على مقربة من قرطبة ، وقد تلاقى رجال الفريقان المتصارعان «حين صلوا الصبح ، فتطاعنوا على الخيل حتى تقصفت الرماح ، وثبتت الخيل وحميت الشمس ، ثم تداعوا الى البراز فتنالوا بالسيوف حتى تقطعت ، ثم تقابضوا بالأيدي والشعور ، ولم يكن فى الاسلام صبر مثله» وعندما اصيب الطرفان بالانهك اسرع الصمميلى نحو قرطبة فاستنجد بأهل سوق المدينة من عمال وجزارين وسواهم ، وحسم هؤلاء بحضورهم المعركة لصالح الصمميلى وصحبه ، وأعقب المعركة تصفية دموية لرجالات الحزب اليماني .

وحين وقعت هذه الاحداث كانت الخلافة الأموية فى المشرق تمر بدور الحشجة النهائى ، لذلك سارت الامور فى الأندلس دون ان يكون للخلافة او والى افريقية اى دور فى ايقاف المذابح التى

وقعت ، وازدادت أحوال الأندلس سوءا أنه حُل بها سنة ١٣١ هـ / ٧٤٨ م وسنة ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م قحط شديد ومجاعة دفعت بالعديد من سكان الأندلس من العرب الى هجر الأندلس والعودة الى المغرب ، وكان ذلك فرصة اهتبلها رجال المقاومة الاسبانية ، فبدأوا حرب الاستغلاب التي ستستمر أجيالا طويلة ، وتنتهي بسقوط الأندلس وطرد العرب منها .

لقد تهيأت الظروف للعرب منذ ولاية عبد الملك بن قطن للانتقام لفاجعة بلاط الشهداء واستئناف حركة الفتوحات ، لعدة أسباب كان منها توفر عناصر كثيرة في بروفانس وسواها تعاونوا مع العرب لكرهتهم لشارل مارتل ، ولانشغال شارل مارتل نفسه في نشر سلطانه في أماكن أخرى ، لكن حالة التمزق التي سادت بين صفوف العرب والمسلمين في الأندلس وعدم توفر قوى بحرية كافية لدى العرب ، وأخيرا الفوضى التي حلت بالشام والمشرق منذ استيلاء يزيد الناقص على الخلافة ، وبعد هذا أحداث الثورة العباسية حرمت العرب من فرصهم ، ومعروف انه كان من نتائج قيام الدولة العباسية توقف الحركة الهجومية للفتح وشروع المسلمين باعتماد خطط الدفاع .

وبالفعل جرى تجصين بعض المواقع الاسلامية في جنوب فرنسا ومقاطعة بروفانس ومع هذا نجح الفرنجة والاسبان بالاستيلاء على بعض المواقع الاسلامية مثل أفينون Avignon «صخرة أبينون» لكنهم لم يتمكنوا من أخذ نربونه ، حتى شارل مارتل نفسه أخفق في الاستيلاء عليها مع انه حاصرها لبعض الوقت (١٧) .

وكان لسقوط الدولة الأموية في المشرق وحلول الخلافة العباسية محلها أوسع الآثار وأكثرها حسما بالنسبة للأندلس ، فتاريخيا أنهى الانتصار العباسي العصر الذي كانت فيه الأندلس ولاية وسبب قيام عصر جديد ، غدت فيه بلاد الأندلس أول قطر اسلامي يخرج عن الاجماع الاسلامي بالطاعة لخليفة واحد ، واضطرت هكذا الأندلس للاعتماد على طاقاتها الذاتية لمواجهة طاقات القارة

الأوروبية ، مضاف الى هذا أحيانا دسائس ومؤامرات حيكت في دار  
الاسلام ، لذلك لاعجب أن ترافق وصول الأندلس الى ذروة القوة مع  
الانهيار السريع .

## عصر الامارة الأندلسية

بعد معركة شقذة خلصت ولاية الأندلس الى يوسف بن عبد الرحمن ، لكن ذلك ظاهر فقط ، ذلك أن يوسف لم يكن له من منصب ولاية الأندلس إلا لقب الأمير الاسمي فقط لاستئثار الصميل بن حاتم بالسلطة الفعلية ، ومع مرور الأيام تبرم يوسف وأظهر انزعاجه لمكانته الثانوية ، ففكر في التخلص من الصميل ، واستطاع ذلك بأن أبعده عن قرطبة الى سرقسطة في الشمال ووصل الصميل الى هذه المدينة سنة ١٣٣هـ / ٧٥٠م ، وكانت غالبية سكان سرقسطة من العرب من جماعات الحزب اليماني.

ولم يلق الصميل وقت وصوله الى سرقسطة معارضة تذكر ، ويعود سبب ذلك الى أن وصوله تزامن مع احتدام القحط والمجاعة هناك وعمل الصميل طوال فترة المجاعة على تقديم العون من طعام وكساء وماوى الى جميع المحتاجين دونما تمييز ، وهكذا مضت حقبة من الزمن ساد فيها الهدوء والتفاهم وانعدام الشغب والنزاعات بين القيسية واليمانية. لكن ما أن زال الجفاف وعاد الخصب ، وزال الجوع حتى تحركت النفوس بأحقادها من جديد ، وعقدت عنة تحالفات ضد الصميل ومؤيديه من قيس ، وما لبثت الثورة أن تفجرت ضد الصميل في منطقة سرقسطة ، وبالوقت نفسه واجه يوسف بن عبد الرحمن تحركات مضادة له في قرطبة وما جاورها ، وحين وقع الصميل في الضيق ، اتخذ موقف الدفاع ، ثم اعوزته الحاجة الى التماس العون من يوسف فطلب منه انجاده ، ولم يكن يوسف في حالة تمكنه من تلبية طلب الصميل ، كما أنه لم تكن لديه الرغبة في تلبية هذا الطلب ، ذلك أنه كان يرغب فعلا في التخلص من الصميل ومن نفوذه.

وضاق الحصار على الصميل وأضر به حتى يدس من الحياة وهم

بالالقاء بيده ، وعندما لم يلق من يوسف الاستجابة ، كتب الى زعماء قيس ، فتحرك هؤلاء الزعماء بفعل الروابط القبلية وبفضل عوامل جديدة دخلت الى مسرح احداث الأندلس ، وتجديشت قوة من قبائل قيس ، ومن جماعة عرفت بموالي بني أمية ، وانطلقت نحو سرقسطة ، وكان برفقة هذه القوة رجل طرقت الأندلس حديثا ، عرف ببدرمولي عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك .

وتخلص الصميل من الحصار ، وتوجه مع القوة التي جاءت لنجدة نحو قرطبة ، وفي سرقسطة قام بدر بالاتصال بالصميل وأخبره أنه رسول مولاه إليه ، وعرض عليه أن يعاون ابن معاوية على تسلم الحكم في الأندلس ، وأحياء الملك الأموي بعد انقطاعه في المشرق ، واستجاب الصميل في البداية « واتفق مع الأمويين على نصرة ابن معاوية وأن يزوجه من ابنته ، ثم رجع في قوله ، وقال: تأملت الأمر فوجدته صعب المرام » وهنا انقطع رجاء بدر من قبائل قيس وزعيمها الصميل .

وتحول بدر نحو عناصر القبائل اليمانية التي كانت تعاني من القهر والتحكم القيسي فوجدهم « قوما قد وغرت صدورهم ، يتمنون سبيلا لطلب ثأرهم ، وأعدت العدة ورتبت الأمور لدخول ابن معاوية الى الأندلس ، وعاد بدر الى مولاه ومعه خمسمائة دينار وبعض الرجال مع مركب خاص ليعبر به مضيق جبل طارق .

وانتظرت الفرصة المناسبة لتنفيذ العبور ، وجاءت هذه الفرصة سنة ١٣٨ هـ - ٧٥٥ م عندما تغيب يوسف بن عبد الرحمن ومعه الصميل وقوات الولاية ، عندما تغيبوا عن قرطبة حيث توجهوا الى طليطلة لامضاء البعوث ضد البشكنس وسواهم ، وفي أول ربيع الأول سنة ١٣٨ هـ - ١٤ - اب من سنة ٧٥٥ م نزل عبد الرحمن ابن معاوية في ميناء المنكب بين المرية ومالقة ، وعلى الفور اتخذ لنفسه مقرا في قرية قريبة دعيت بَطْرُش ، ومن هناك بدأ نشاطه ، وهنا لابد لنا قبل متابعة الحديث عما آلت اليه أمور عبد الرحمن مع أمور الأندلس بعد نزوله فيها من الوقوف قليلا كيما نعود الى الوراء

لنتعرف الى شخصية عبد الرحمن مع الأسباب التي حملته على ترك  
المشرق والقدوم الى الأندلس.



## عبد الرحمن الداخل

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، يرجح أنه ولد في منطقة دمشق سنة ١١٣ هـ / ٧٣١ م ، وكانت أمه بربرية من سببي المغرب تسمى « راحا » أو « رواحا » وقد توفي أبوه وعبد الرحمن ما يزال طفلا صغيرا ، فعني به جده هشام عناية خاصة ، وفي مصادرنا كان سبب ذلك أن عبد الرحمن ذهب مرة إلى قصر هشام بن عبد الملك ومعه أخوته الأطفال ، وعندما كانوا بالباب ، جاء عم أبيه مسلمة بن عبد الملك إلى القصر ، وعند دخوله سأل عن الأطفال ، فأخبر بأنهم أيتام معاوية بن هشام ، فنظر إليهم متفحفا واستعرضهم واحدا واحدا ، وعندما مر به عبد الرحمن احتضنه وضمه إلى صدره بحنان ، وصادف أن خرج ساعته الخليفة هشام فراه يفعل ذلك بحنان فسأله: « من هذا يا أبا سعيد؟ » فأجابه مسلمة: ولد لمعاوية ابنك ، ثم مال عليه وأسر إليه بصوت سمعه عبد الرحمن ، وكان مما قاله: بنا الوقت ، وهذا هو ، فسأله هشام: « أهو؟ » فأجابه مؤكدا: « اي والله وقد عرفت العلامات والامارات بوجهه وعنقه ».

والقبول بهذه الرواية يعني أن هشام بن عبد الملك كان لا يعرف أحفاده ، وهذا أمر من الصعب تصديقه ، وتفسير الرواية: إن بني أمية كانوا يعرفون عن طريق النبوءات أن ملكهم أيل إلى الزوال في المشرق، لكنه سيبعث في المغرب على يد رجل صاحب صفات معينة ، وكان مسلمة بن عبد الملك أكثر أهله معرفة بما سيحل بملك بني أمية وبما ستكون عليه الأحوال فيما بعد.

وتبعا لهذه الرواية لقي عبد الرحمن عناية جده ، وعندما زال ملك بني أمية ، وقامت الدولة العباسية تذكر ، فتوجه إلى المغرب ليعمل على إحياء الحكم الأموي ، ونجح في ذلك.

لا شك أن طابع الصنعة والتزوير واضح على هذه القصة التي

استهدفت اصفاء الشرعية النابعة عن الارادة الالهية على نجاح اعمال عبد الرحمن ، ولا ريب ان مثل هذه الاقاصيص كانت تلقى بعض القبول في المجتمع الاسلامي ، وقد وجد من روج لها ، ففي عصور الاسلام المبكرة كثرت النبوءات وتعددت الى حد عجيب غريب ، وكان هناك من امن بحتمية الاقدار وان الانسان مسير محكوم عليه بقدر لا يتغير ولا يتبدل ، ولو صحت مثل هذه النبوءات لاختلف موقف بني أمية من الحركة العباسية وثورتها حين اندلعت .

لكن يقال هنا: يؤيد هذه النبوءة توجه عبد الرحمن نحو المغرب فالأندلس ، والاجابة هنا: ليس عبد الرحمن وحده من بني أمية الذي توجه نحو المغرب ، ولو كان هناك نبوءة أخذ بها لما أمضى - كما سنرى - فترة طويلة بالمغرب قبل ان يجرب حظه في الأندلس .

لقد فر عبد الرحمن الى المغرب لأنه لم يجد سبيلا آخر ، وكان عبد الرحمن وقت تفجر الثورة العباسية قد تخفى في إحدى القرى القريبة من الفرات ، والذي دفعه الى التستر هو البطش العباسي وعمليات الابادة الشاملة التي مارسها العباسيون ضد جميع افراد الأسرة الأموية ، وأقام عبد الرحمن قرب الفرات بسبب إقامة هشام عبد الملك أيام خلافته في رصافة الرقة ، وحدث أنه في أحد الأيام فوجيء عبد الرحمن بثلة من الجند العباسي تقتحم القرية التي كان فيها ، فهرب من وجهها مع أخ له وألقى بنفسه في الفرات فاجتازه سباحة ، في حين لم يستطع أخوه متابعة السباحة فوقع في يد الجند العباسي فذبحوه على الفور ، ومن هناك هرب عبد الرحمن نحو فلسطين ، ولعله تخفى عند أحد أنصار بني أمية أو مواليهم ، وفي فلسطين لحق به مولاة بدر مع سليم مولى أخته أم الأصبح ، وهناك زوداه بمال ومجوهرات بعثت بهم إليه أخته ، ومن فلسطين توجه الى مصر فاجتازها الى المغرب .

وكان المغرب لم يدخل بعد تحت السلطة العباسية ، وكانت اموره بيد عبد الرحمن بن حبيب الفهري من أحفاد عقبة بن نافع ، وكان

عبد الرحمن بن حبيب هذا قد استولى على أمور المغرب واستبد بالسلطة هناك استيلاءً لا تفويضاً ، فقد كان بالأصل من أهل الأندلس ، هرب منها الى المغرب ، ثم تدبر أموره فأحدث انقلاباً استولى فيه على حكم المغرب كله.

وشجع بعد المغرب ووضع السياسي أفراداً من البيت الأموي على اللجوء إليه ، ويبدو أن عبد الرحمن رحب في البداية بالعناصر الأموية التي وصلت الى المغرب ، وقدم لها المساعدة ، ولعل عبد الرحمن بن معاوية كان أحد هؤلاء الأمويين الذين وصلوا الى المغرب ولقوا مساعدة ابن حبيب ، لكن ابن حبيب ما لبث أن غير سياسته تجاه الأمويين ، ذلك أنه كان فيمن قدم عليه من الأمويين ولدان للوليد بن يزيد بن عبد الملك ، يقال لأحدهما القاضي والآخر المؤمن....فأنزلهما عبد الرحمن بدار....وكانت معهما عجوز في الدار ، فدرس إليها عبد الرحمن بن حبيب أن توصله إلى موضع تسمعه منه كلامهما ، فقالت: إن البيت الذي هما فيه ، في سقفه غرفة فإن شئت فأنا أوصلك ليلاً إلى ظهر البيت حتى تطلع عليهما ولا يعلمان ، فقال: أفعلي ، فلما كان في الليل أطلع عليهما وهما على نبيذ لهما ، ومولاهما يسقيهما ، إذ قال القاضي: ما أغفل عبد الرحمن ، أظن أنه يتمنى معنا ولاية ونحو أولاد الخليفة ؟! وبعدها سمع عبد الرحمن هذا الكلام بطش بالأميرين الأمويين ، وأخذ بملاحقة بقية الأمويين فبادروا الى الفرار والتجأ بعضهم الى القبائل البربرية ، وكان ممن فعل ذلك عبد الرحمن بن معاوية .

قد تكون قصة التصنت هذه مخترعة وهي مجرد صدق لتغيير ابن حبيب لسياسته تجاه من لجأ إليه من بني أمية بسبب خشيته من مطامح بعضهم مع رغبته في التقرب إلى العباسيين ، الذي يعزينا هنا هو أن عبد الرحمن بن معاوية مضى « ينتقل من قبيلة إلى أخرى ، ومن بلد إلى آخر ، وذرع إفريقية الشمالية من أندلس إلى أقصاها ، فاخترق دينا في برقة ، ولان دينا آخر ببلاط بني رستم

ملوك تاهرت ( من المغرب الأوسط ) كما ذهب إلى قبيلة مكناسة البربرية ، ولجأ إليها مستظلاً بحمايتها ، وهكذا انقضت خمس سنوات - وهي فترة غير قصيرة - دون أن يخطر ببال عبد الرحمن أن يجرب حظّه في إسبانيا ، بل كانت إفريقية هي شغل هذا الشاب البهي الطلعة ، الملق ، العديم الأصدقاء ، ودأب على اصطناع كل وسيلة للحصول على أنصار له ، فطردته مكناسة من أرضها فتركها إلى قبيلة نفزه البربرية التي منها أمه ، وكانت تسكن قرب سبتة .

ومن هناك تعرف عبد الرحمن إلى أحوال الأندلس ، وكان طموحاً ، لاتنقصه روح المغامرة ، فأرسل مولاة بدر إليه ، فاتصل بدر هناك بجماعة كانت من موالى الأسرة الأموية ، وكان هؤلاء الموالى زهاء أربعمائة أو خمسمائة شخص ، ونجحت جهود بدر ، وأعدت العدة لجواز عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس ، وكان أبرز الزعماء الذين تعاونوا مع بدر يدعى عبيد الله بن عثمان .

وتلفت شخصية بدر الانتباه ، ويبدو أن نشاطه في الأندلس والاستعدادات التي عملت من أجل عبور عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس لم تكن سرا البتة ، والذي كان سرا هو وقت العبور وموضعه ، ذلك أنه بعدما نزل عبد الرحمن ساحل الأندلس ووصل خبر ذلك إلى قرطبة ، كتبت زوجة يوسف بن عبد الرحمن إليه تقول : « ابن معاوية قد دخل ونزل بطرّش عند الفاسق عبيد الله بن عثمان ، وأصغفت بنو أمية معه ، وإن خليفتك على البيرة زحف إليه بمن خف من أهل الطاعة ليخرجه ، فهزم وضرب أصحابه » .

وشاع الخبر بين صفوف جند يوسف فانفض أكثرهم عنه ، وعاد بعضهم إلى موطنه وانضم بعضهم الآخر إلى عبد الرحمن بن معاوية ، وبذل يوسف غاية جهده لجمع قوة مناسبة تسير معه ضد عبد الرحمن ، وكان الوقت مواتماً لذلك ، فأخفق على الرغم من بذله المال والوعود ، وعاد يوسف إلى قرطبة وحل الشتاء فصار من الصعب عليه القيام بأي تحرك عسكري ، ولقد سعد عبد الرحمن بن معاوية بضعف يوسف وبالتمزقات السياسية في الأندلس ، ولم

يضع الفرصة التي واثاه بها حلول الشتاء ، فزاد من نشاطه ، وصار يبني في المناطق الجبلية ويتحرك بسرعة غير مفوت لفرصة من الفرص ، وهكذا ازداد عدد أعوانه ويبدو أن حركته قد أخذت بعض السمات الاجتماعية ، ولعلها بذلت الكثير من الوعود الاصلاحية ، فلاقت التجاوب وانضم إليه الكثير من الفقراء والمظلومين من عرب وبربر ، ونستخلص هذه الصورة من نص رسالة وجهها يوسف إلى عبد الرحمن جاء فيها : « أما بعد فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب ، وتأبش من تأبش إليك ونزع من السراق وأهل الخثر والغدر ، ونقض الايمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبه جل وعلا نستعين عليهم ، ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيش حتى غمضوا ذلك واستبدلوا بالأمن خوفا ، وجنحوا إلى النقص ، والله من ورائهم محيط ، فإن كنت تريد المال وسعة الجناب ، فأنا أولى بك ممن لجأت إليه ، أكذفك وأصل رحمك ، وأنزلك معي إن أردت ، أو بحديث تريد ، ثم لك عهد الله وذمته إلا أغدر بك ، ولا أمكن منك ابن عمي صاحب إفريقية ولا غيره » .

وعرض يوسف على عبد الرحمن أن يزوجه ابنته ، ولاشك أن عروض يوسف هذه ابتغت تضليل عبد الرحمن والتغريب به ، لكن عبد الرحمن كان أكثر نباهة وحذرا ، فرفض طلب يوسف ، وأهمل عروضه ، وطلب منه التنازل عن حكم الأندلس ، وخيره بين ذلك وبين المحاكمة إلى السيف .

ومع الأيام ازداد اتباع عبد الرحمن ، فأخذ يعد العدة للزحف على قرطبة ، وعندما تحرك نحوها حاول يوسف إيقافه فأخفق ، وفي مشارف قرطبة التقى جيش عبد الرحمن بجيش يوسف والصميل ، فاستطاع عبد الرحمن إيقاع هزيمة ساحقة بهما وبقواتهما وأجبرهما على الفرار ، وهكذا تمكن عبد الرحمن من دخول قرطبة ، وكان ذلك صباح يوم عيد الأضحى لسنة ١٣٨ هـ / ١٤ - أيار ٧٥٦ م .

وقام جند عبد الرحمن اليمينيون بنهب قرطبة ، وعندما حاول

إيقافهم عن النهب ومنعهم من القيام بعمليات الانتقام من خصومهم القيسيين غضبوا غضبا شديدا ، دفعهم إلى التآمر على عبد الرحمن ومحاولة التخلص منه ، ولحسن حظ عبد الرحمن أنه علم بخبر المؤامرة عليه ، فاحتاط لنفسه ودبر حمايتها ، مما دفع المتآمرين للتخلي عن خططهم .

وبعدما صار عبد الرحمن سيد قرطبة ، ألقيت الخطبة باسمه يوم الجمعة ، ولم يتم الدعاء في هذه الخطبة للخليفة ، ذلك أن الخليفة كان آنذاك هو أبو جعفر المنصور وكان المنصور عدوا للأسرة الأموية ، لذلك كان من غير المنطقي أن تتم الخطبة باسمه ويعترف بخلافته ، وخلق هذا حالة جديدة ذلك أن عبد الرحمن احتفظ لنفسه بلقب أمير ، فكان بذلك مثله مثل من سبقه في حكم الأندلس ، ولم يعلن عبد الرحمن نفسه خليفة ، ذلك أنه لم يكن في وضع يمكنه من فعل ذلك ، مع أن عبد الرحمن لم يكن أول حاكم في تاريخ الأندلس يستولي على السلطة استيلاء أولا ثم يتم تعيينه من قبل السلطات الإسلامية الشرعية ، إلا أنه كان أول أمير للأندلس يقوم بفصل هذه الولاية عن جسم الدولة الإسلامية فصلا سياسيا كاملا ، ويسعى إلى تأسيس حكم أسرة وراثية مستقلة فيها ، والجديد الجديد في هذا الأمر هو الجانب النظري التشريعي أكثر من الجانب العملي ، فعلميا كانت الأندلس دائما مستقلة ، يربطها خيط واهي بالسلطات الشرعية لأفريقية أو دمشق ، فقام عبد الرحمن بقطع هذا الخيط ، فابتدأ بذلك عهدا جديدا في تاريخ الأندلس ، وخط سابقة خطيرة في تاريخ الإسلام ووحدة أراضيه السياسية ، ورسم بداية النهاية للوجود العربي في شبه الجزيرة الأيبيرية ، لأن المواجهة الآن باتت بين قارة وحدها الصليب وبين فئة صغيرة دانت بالتوحيد لكن نادرا ما التزمت بوحدة الصف. وبعدما صار عبد الرحمن سيد قرطبة واجه العديد من المسائل الفانقة الأهمية ، فلقد كان عليه أن يكمل سيطرته على بقية أجزاء الأندلس وأن يقوم بمعالجة قضايا الصراع بين العرب والبربر وبين العرب أنفسهم من قيسية ويمانية ، كما كان عليه أن يقوم بمعالجة المشاكل الاجتماعية والزراعية لولايته ، فلقد

وافق تسلم عبد الرحمن لحكم الأندلس بداية حدوث تحولات كبيرة في المجتمع الأندلسي ، وخاصة بين صفوف السكان الأصليين ، ذلك أن أعدادا لا بأس بها من هؤلاء بدأوا بالتحول إلى الإسلام ، وكانت أسباب التحول هذه أسبابا نجمت عن قناعات خاصة حركتها المطامح والمصالح المالية والسياسية مع هزيمة الكنيسة الإسبانية وإفلاسها أمام الدعوة الإسلامية والحضارة العربية الناشئة المتدفقة بالحياة والتجديد ، ودعي هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام باسم المولدين ، وشكلوا جماعة خاصة تميزت بعض الشيء عن جماعات الموالي في الشرق كما شابها في بعض الوجوه .

وبهرت قوة العرب ، وحيوية لغتهم ، وجوانب الإبداع في ثقافتهم وحضارتهم معظم بقية السكان الأصليين للأندلس ، فتخلّى هؤلاء عن تراثهم ولغتهم وعاداتهم لما قبل الفتح الإسلامي وتبنوا كل ما كان للعرب إلا دينهم ، وعرف هؤلاء باسم المستعربين .

لقد ضمت كل فئة من فئات سكان الأندلس جماعات راضية وجماعات ساءخة ، لذلك واجه عبد الرحمن وخلفاؤه العديد من الثورات ، ولجأ عبد الرحمن إلى اعتماد وسيلة العنف للقضاء على مناوئيه ، وسعى في البداية للابقاء على نوع من التوازن بين القيسيين واليமானيين وفي الوقت نفسه أخذ في إعداد جيش من المرتزقة والعبيد ، وهكذا بدأ بنسف نظام الخدمة العسكرية السالف ، كما أن تجنيده لجيش خاص جعله يختلف عن متقدميه من حكام الأندلس ، إذ استغنى عن الاعتماد على واحد من الحزبين العربيين ، وبدلاً من أن كانت العصبية هي الرابط الذي يشد قوى الحكم والمعارضة ، صارت الآن شخصية الأمير هي محور العمل السياسي في الأندلس والرابط الذي يجمع القوى ، واستدعى هذا إنشاء بلاط ، وإضفاء صفات خاصة على الأمير .

وكان لإنشاء البلاط وإقامة الجيش المحتشرف نتائج سياسية وحضارية كبيرة ، كما أن ذلك كان يحتاج إلى نفقات كبيرة مما دعا إلى العناية بموارد البلاد الاقتصادية وإلى تنويع الضرائب وزيادتها

وكل هذا لم يكتب له أن يقوم دون ردات فعل ، ومشاكل مستجدة  
معقدة .

وبسبب أن عبد الرحمن كان قد استولى على قرطبة بفضل مؤيديه  
من رجال الحزب اليماني فقد وجد أن عليه أولاً أن يعالج مشكلة  
الحزب القيسي ، ذلك أنه بعدما دخل قرطبة ، سيطر على عاصمة  
الأندلس ، لكن ليس على جميع أجزاء البلاد ، فقد هرب يوسف بن  
عبد الرحمن إلى طليطلة ومضى الصميل إلى عشبيرة في جندجيان ،  
واخذوا يعدان العدة لجولة ثانية مع عبد الرحمن ، وقام عبد الرحمن  
بدوره بالاستعداد ، وسار أولاً ضد يوسف ، وبعد اشتباكات عدة  
كسبها عبد الرحمن ، استطاع عبد الرحمن أن يجبر خصمه على  
الاستسلام له ، وجلبها معه إلى قرطبة ، حيث عاملهما معاملة  
كريمة وكان يشاورهما أحياناً ويستعين بخبرتهما ، وعندما تمكن عبد  
الرحمن من خصمه يوسف والصميل صار سيد الأندلس بدون  
منازع ، ولو كان ذلك لفترة من الزمن ، ولم يستطع يوسف تحمل  
اقامته الجبرية في قرطبة فهرب سنة ١٤١ هـ - ٧٥٨ م منها ، واخفق  
جند عبد الرحمن في تعقبه والقاء القبض عليه ، وقام عبد الرحمن  
باعتقال الصميل وحمله وزر هرب يوسف والقاء في السجن مع ولدي  
يوسف ، ولقي الصميل حتفه في السجن بصورة اختلفت أخبارها .

وتمكن يوسف من جمع جيش كبير قدر بعشرين ألف من عرب  
وبربر ، وزحف على قرطبة ، وكان أن اصطدم أولاً بأشبيلية ، وهناك  
هزم ولحق فقبض عليه قبيل طليطلة وهناك قتل ، وأثر ذلك أجهز  
عبد الرحمن على أبي زيد بن يوسف وأبقى الولد الآخر حياً في  
السجن .

وكان هذا الولد يعرف بأبي الأسود ، وقد تظاهر بفقدانه بصره  
فأنطى ذلك على سجنائه ، وهيا له الفرصة للهرب ، وقد أثار هربه  
بعض المتاعب لعبد الرحمن وهذا ما سنأتي على ذكره فيما بعد .  
ولم ينعم عبد الرحمن بالاستقرار طويلاً بعد تفرغه من معالجة  
مشاكل الحزب القيسي فقد انجر نحو معالجة مشاكل الحزب



اليمني، فقد ساعد رجالات هذا الحزب عبد الرحمن لا حبا به بل سعيا وراء الانتقام من الحزب القيسي وحبا لنيل السلطة ، وكان من حسن حظ عبد الرحمن وجود تنافس بين زعماء الحزب اليمني حال دون اتفاقهم ، وكان عبد الرحمن يدرك نوايا اليمنيين ، إلا أنه كان مضطرا للتعاون معهم ، ولهذا نجده يلجأ إلى سياسة التوازن فلم يحاول اباداة الحزب القيسي ، وكانت غالبية العناصر اليمنية تسكن في الجنوب الغربي من أراضي الأندلس وخاصة في منطقة سرقسطة ، وواجه عبد الرحمن عدة ثورات يمانية أخذها واحدة تلو الأخرى . ولعل أخطر الثورات التي واجهها عبد الرحمن وأهمها تلك التي قادها العلاء بن مغيث الجذامي سنة ١٤٦ هـ - ٧٦٣ م بتحريض من الخليفة أبي جعفر المنصور وتأييد منه ، وكانت هذه الثورة أن تقضي على جهود عبد الرحمن وتعيد الأندلس ولاية من ولايات الخلافة ، لكن حزم عبد الرحمن وشجاعته مكناه من تحقيق النصر على أصحاب الرايات العباسية السود ، فقتل العلاء كما قتل أعدادا كبيرة من الثوار وبعث بعدد من رؤوس القتلى فرميت بسوق القيروان ، ويقال أنه بعث ببعض الرؤوس الى مكة ، وكان المنصور حاجا انذاك فرميت قريبا من خيمته ، فلما راها وعرف رأس العلاء بينها أصابه الذعر وقال : «إنا لله ، عرضنا بهذا المسكين للقتل ، الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان »

وفي سنة ١٤٩ هـ - ٧٦٦ م واجه عبد الرحمن ثورة يمانية أخرى بقيادة سعيد اليعصبى ، الذي عرف بالمطري ، واستطاع المطري احتلال اشبيلية ، فسار عبد الرحمن ضده وهزمه وقتله ، وفي السنة نفسها قتل عبد الرحمن زعيما يمانيا آخر هو أبو الصباح بن يحيى اليعصبى ، وفي سنة ١٥٦ هـ - ٧٧٢ م واجه عبد الرحمن ثورة يمانية أخرى في منطقة اشبيلية بقيادة عبد الغافر اليعصبى فلقى عليها أيضا وقتل العديد من الثوار .

ولقد تورط في الثورات التي واجهها عبد الرحمن الكثير من البربر ، كما خرج البربر في ثورات منفردة قضى عليها عبد الرحمن جميعا ، وقد دفع الحقد على عبد الرحمن بعض العناصر المتنافرة لا

الى التحالف ضده فقط بل حتى إلى طلب العون الخارجي واستعداد قوى غير عربية وغير مسلمة ، فقد تحالف سليمان بن يقطان العربي الكلبي حاكم برشلونة مع عبد الرحمن بن حبيب الفهري صهر يوسف الذي عرف باسم الصقلي «لأنه كان طويلا ، أشقر ، أزرق امعر » وأبي الأسود بن يوسف الذي تظاهر بالعمى وهرب من سجن عبد الرحمن ، وقام الثلاثة بالسفر الى بلاط شارلمان وكان ذلك سنة ١٦٠ هـ - ٧٧٧ م ، فاتفقوا معه ووضعوا معه خطة محكمة تمكن شارلمان من اخذ سرقسطة كما تمكنهم من اشغال عبد الرحمن في مناطق أخرى من البلاد حتى تتم هزيمته والقضاء على حكمه .

وعبر شارلمان جبال البرانس بقواته وفق الخطة الموضوعة ، وعندما دخل الأندلس عرف بأن الصقلي قد لاقى حتفه ، وأن أبا الأسود لا حول له ولا طول ، ومع هذا سار نحو سرقسطة التي كان سليمان بن يقطان قد استولى عليها ، يريد أخذها منه حسب الاتفاق المعقود .

وحين علم عرب سرقسطة بخطط سليمان بن يقطان وقفوا ضده واستعدوا للدفاع عن مدينتهم ، وفر سليمان من سرقسطة إلى شارلمان ووضع نفسه تحت تصرفه ، وبينما كان شارلمان يتأهب للشروع في حصار سرقسطة تسلم خبرا قضى بالاخفاق على جميع خطته ودفعه نحو العودة مسرعا الى مملكته ، فقد عاود السكسون الثورة ضده مغتنمين فرصة غيابه .

لكن كيف تمكن شارلمان من الوصول الى سرقسطة مباشرة ؟ لقد تمكن من ذلك بسبب أن العرب كانوا قد فقدوا سيطرتهم على مقاطعة سبتمافيا وخسروا حصنهم المنيع في أربونه ، فقد توفي شارل مارتل سنة ٧٤٧ م ، فخلفه ابنه بيبن ، وقد اعترف البابا بيبن ملكا شرعيا الأمر الذي لم يحظ به شارل مارتل نفسه ، وسعى بيبن في الاسمين الأولى من حكمه للسيطرة على اkitانية وانتزاع حكمها من أبناء أود ، وهىأ هذا النزاع فرصة ثمينة أمام العرب ، غير أن ما شهدته

ساحات الأندلس من الصراعات الأهلية لم تحل فقط دون اغتنام الفرصة بل دفعت نحو توريط حاميات الثغور في الصراعات ، وعندما خلت المنطقة اهتبل الفرصة بقايا القوط واخذوا يسعون للاستقلال ، وانتزع الفرنجة عدة مواقع هامة من العرب ثم حاصروا اربونة ، وعجزت نجدة أرسلها عبد الرحمن الداخل عن التفريغ عنها ، وفي سنة ١٤٢ هـ - ٧٥٩ م استسلمت هذه المدينة لجيوش بيبن ، وبذلك لم يعد للعرب وجود في سبتمانيا وغيرها من أجزاء المملكة الفرنجية .

واخذت قوة مملكة الفرنجة تزداد مع مرور الأيام ، وغيّرت سياستها تجاه عرب الأندلس من الدفاع الى الهجوم ، وزاد الطين بلة أن بعض زعماء العرب وضعوا أنفسهم تحت تصرف الفرنجة واستدعوا شارلمان ليستولي على سرقسطة وسواها ، واخفقت حملة شارلمان واضطر الى الانسحاب .

وفي طريق العودة أثناء عبور شارلمان وقواته للممر الجبلي الوعر في جبال البرانس انقضض رجال البشكنس ومعهم بعض العرب على مؤخرة قواته حيث مؤن الجيش ونخائره ، فالتفوا المؤن وقتلوا القوات التي كانت تتولى حراستها ، وهكذا اوقعوا كارثة كبيرة بجيش شارلمان ، وكان بين القتلى عدد من النبلاء من بينهم رولاند الذي قيل انه كان ابن اخت شارلمان نفسه وحاكما لمنطقة الثغور .

وعبر عدة قرون ظلت الأجيال الأوروبية تتناقل أخبار الكارثة التي حلت بجيش شارلمان ، محيطية ذلك بهالة خاصة أثرت على الفكر الأوربي للعصور الوسطى ودفعت نحو كتابة واحدة من أشهر ملاحم العصور الوسطى الا وهي الملحمة المعروفة باسم «نشيد رولاند» وكان للحظ الفضل الأكبر في حماية عرش عبد الرحمن هذه المرة ، وكانت حملة شارلمان اخر محنة خطيرة يتعرض لها عبد الرحمن فيما بقي من سني حياته حيث توفي في ٢٥ ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ - ٣٠ ايلول ٧٨٨ م عن عمر قارب الستين ، وذلك بعدما قضى حوالي ثلث قرن يعمل على تأسيس ملك لبني أمية في

المغرب بعدما انقطع في المشرق ،وقد جلب نجاحه اعجاب معاصريه به  
فدعاه المنصور بصقر قريش ، كما اثار هذا النجاح اعجاب الكتاب  
والمؤرخين الذين وجدوا وما زالوا يجدون في حياته الكثير مما يمكن  
الكتابة عنه (١٨) .

## هشام الرضا

وبعدما توفي عبد الرحمن تولى حكم الأندلس ولده هشام ، ويعرف هشام هذا عادة بلقب الرضا ، ذلك أنه يوصف بالتقوى ويعلو الثقافة ودعوته بالرضا لا شك أنها كانت متصلة بتيارات الربيع الأخير للقرن الثاني السياسية والدينية مع النبوات وتطلعات الأمة الإسلامية ، فالفترة هذه بالذات هي الفترة التي ظهر فيها الامام الرضا بين الشيعة الاثنا عشرية ، والذي عينه المأمون وليا لعهدده فترة من الزمن .

فهشام أراد أن يقطف ثمار ما صنته والده ، ويتمم العمل في احلال رابطة الامير محل رابطة العصبية ، وجعل شخصية الامير محور الامور في الأندلس تدور حوله وليس حول سواه ، ولقد كان من الضروري أن يتسم خليفة عبد الرحمن بالتدين والتقوى ومحبة السلم وكراهية البطش ، فالأندلس كانت بحاجة الى الهدوء والامن بعدما فقدت تلك فترة مديدة .

ويشبه هشام الرضا بعمر بن عبد العزيز ، وهو قد نال بتقبواه شهرة كبيرة وصلت إلى المشرق ، حتى تمناه بعض المشارقة أن يكون إمامهم بدلا من الامام العباسي ، فهذا مالك بن انس يقول : «وددت أن الله زين موسمنا - أي موسم الحج - به » .

وشهد عهد هشام الذي امتد حتى سنة ١٨٠ هـ - ٧٩٦ م الكثير من التطورات في المجتمع الأندلسي أعطت جوانب عدة دينية وحضارية وسياسية ، فهو قد نجح في البداية في التغلب على منافسة أخوته له وسعيهم لنيل الملك وانتزاعه منه كما روي أن قصواته تمكنت من استرداد مدينة أربونة ، واستأنف النشاط داخل أوربية في فرنسا وسويسرة واهتم هشام بقرطبة فأكمل ما كان والده قد شرع فيه من بناء جامع قرطبة ، كما شيد قنطرة على نهر قرطبة ، ورمم أسوار

المدينة ، ولعل من أهم الحوادث التي حصلت في عصره واحدة كانت تتعلق بانتشار المذهب المالكي في الأندلس وحلوله محل مذهب الأوزاعي وغيره ، وكان للأخذ بهذا المذهب نتائج كبيرة على مستقبل الأندلس والمغرب معا ، كما أنه يمكن أن يقوم ضمن إطار السياسة الدينية لهشام ، والسياسات الدينية للدول التي عاصرت هشام ، فمعظم الدول التي كان للأندلس بها علاقة ما ، مثل الامبراطورية الكارلونية ، والامبراطورية البيزنطية ، واخيرا الخلافة العباسية ، اتجه حكامها نحو تبني مذهب ديني واحد تجتمع عليه الأمة سواء اكان ذلك قسرا أم تم بالرضا ، ومما يثير الانتباه أن السياسة الدينية لهشام نالت حظا أكبر من النجاح ، مما نالته محاولات اباطرة بيزنطة بشأن توحيد الكنيستين الشرقية والغربية وايجاد صيغة مقبولة لدى الجميع حول عبادة الايقونات وغيرها من المسائل ومما نالته ايضا سياسة المأمون العباسي بتبنيه للاعتراف واعلانه عن أن القرآن مخلوق ، وسعيه لاجبار الناس للأخذ بهذا الرأي .

وحين توفي هشام كان ما يزال في مقتبل الشباب ، كان لتوّه قد جاوز سن الأربعين ، فهو كان قد ولد سنة ١٣٩ هـ - ٧٥٦ م ، وكانت أمه أم ولد تدعى جمال ، ومن ينظر في تاريخ الأسرة الأموية في الأندلس يجد أن غالبية افرادها انحدروا من إماء ، وهذه الظاهرة كانت إحدى سمات مجتمع الأندلس بشكل عام ، فالعرب الذين دخلوا الأندلس دخلوها رجالا بدون نساء ، وحين تزوجوا كانت زوجاتهم في غالب الأحيان من شقراوات أوربة تم الحصول عليهن من اسواق النخاسة ولم يؤثر هذا على ملامح وأعراف الأندلسيين فحسب ، بل كانت له آثار خطيرة على بنية البيت الأندلسي ، وعلى مجتمع الأندلس وعادات افراده في الملبس والمطعم وحتى في طرق التفكير وتقدير الأمور وتقويمها (١٩) .

## الحكم الربضي

قبلما يتوفى هشام الرضا أوصى بالحكم من بعده لابنه الثاني الحكم ، ولم يوص به لابنه الأكبر عبد الملك ، ويعرف الحكم عادة بلقب الربضي ، نسبة إلى ربض قرطبة ، حيث واجه ثورة عارمة فيه سنتحدث عنها ، وقضى عليها وبطش بعناصرها وسفك دماءهم ، ولعل أهم سمات عهد الحكم حماسات الدم التي أقيمت ، وكثرة الثورات التي وقعت ، وقد قاد بعض هذه الثورات عما الحكم اللذان كانا قد ثارا على أبيه وأجبرا بعد إخفاقهما على مغادرة الأندلس إلى المغرب .

فعندما بلغ خبر وفاة هشام إلى المغرب عاد أخواه عبد الله وسليمان ، إلى الأندلس ، ودخل عبد الله أولا ، حيث توجه نحو سرقسطة ومن هناك رحل نحو بلاط شارلمان يستنجد ويستعديه ، وكان هذا سنة ١٨١ هـ / ٧٩٧ م ، وفي سنة ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م عاد سليمان (وبعضهم يقول عاد قبل ذلك ) وأعلن الثورة ضد الحكم ، وخاض ضد قوات الحكم عددا من المعارك هزم فيها ، وكان آخر المعارك سنة ١٨٤ هـ - ٨٠٠ م ، حيث أسر فأتي به إلى الحكم فقتله ، وفي السنة التي قتل فيها سليمان عاد عبد الله من بلاد شارلمان فأعلن الثورة في منطقة سرقسطة ، فلم يصب النجاح ، ومع ذلك تابع نشاطه ضد ابن أخيه حتى سنة ١٨٧ هـ - ٨٠٣ م حيث تم عقد تسوية بينه وبين الحكم أوقفت نشاطه وأنهته .

وأهم من هذه الثورات ما حدث في كل من طليطلة وربض قرطبة ، وكانت طليطلة عاصمة الأندلس قبل الفتح الإسلامي ، كما أنها تميزت بحصانة موقعها وسهولة الدفاع عنها ، وجعلها هذا مأوى لذوي الأهواء والمطامح ، وأوجد فيها الاستعداد للثورة بشكل متواتر ويروى أن ثورة أعلنت فيها سنة ١٨١ هـ - ٧٩٧ م بزعامة رجل عرف بعبيد بن حميد ، وقام الحكم بارسال جيش بقيادة قسائد عرف

بعمروس بن يوسف ، وأخفق عمروس في الاستيلاء على طليطلة بالقوة ، وهنا لجأ الى الخديعة ، فاستطاع تدبير اغتيال عبيد وتخلي اهل طليطلة عنه ، واستطاع بعد هذا ان يقنع اهل المدينة بفتح باب المدينة له وادخاله إليها ، وتذكر المصادر الأندلسية أنه بنى قصرا عند مدخل طليطلة ، وعند ما قدم الناس لتهنئته أعدم أشرفهم ورجالاتهم ، وبلغ عدد الذين أعدمهم ما بين « ٧٠٠ الى ٥٣٠٠ » وبحمام الدم هذا ضمن طاعة طليطلة واستقرار الحكم الأموي فيها .

واهم من ثورة طليطلة وأكثر شهرة ثورة ربض قرطبة ، والربض هو الضاحية التي تقوم قرب المدينة ، فمدينة قرطبة كانت محدودة المساحة ذلك أنها كانت مدينة مسورة ، وبعدما صارت عاصمة الأندلس وفدت إليها عناصر كثيرة من السكان لتستوطن بها ، وعادت الهجرة الداخلية إلى المدن المركزية أمر مألوف ، ويبدو أن غالبية العناصر التي هاجرت الى قرطبة اضطرت إلى السكنى خارج الأسوار ، وكونت مع الأيام ما يشبه أن يكون مدينة جديدة عرفت بربض قرطبة ، وتميزت المدينة الجديدة بعناصرها ومجتمعها عن قرطبة .

وحين نقوم بالبحث في ثورة الربض لا بد لنا من أن نأخذ بعين الاعتبار شخصية الحكم وطبيعة عصره ، فلقد تسلم الحكم مقاليد الأمور وهو في ريعان الشباب ، في السادسة والعشرين من عمره ، وكان أشبه الناس بجده عبد الرحمن بن معاوية بأقدامه ، وبأخذه بمبدأ العنف ، ولم يكن مثل أبيه في تقاه وتمسكه بأمور الدين من حيث الباطن والظاهر ، ومن الملاحظ أن مجتمع الأندلس كان قد أخذ في أيام هشام الرضا بالتحول نحو الأخذ بأسباب الدين ، ولقد راينا كم نال هشام من التوفيق والشهرة بسبب تقاه وتمسكه بالاسلام ، ووصف ابن عذاري الحكم بأنه كان «شديد الحزم ، ماضي العزم ، ذا صولة تنقى ، ... وكانت له ألف فرس مرتبطة بباب قصره على جانب النهر ، عليها عشرة من العرفاء ، تحت يد كل عريف مائة فرس ، فإذا بلغه عن ثائر في أطرافه أمر ، عاجله قبل استحكام أمره ، فلا يشعر حتى يحاط به » .



واكمل الحكم عملية تطوير اسس الحكم في الاندلس مع ربط الوحدة بشخصية الأمير ، كما استخدم العنف للاحتفاظ بسلطانه ، وبدأت التحركات ضد الحكم في الربض منذ فترة مبكرة ففي سنة ١٨٩ هـ - ٨٠٥ م كشف مؤامرة استهدفت الاطاحة به ومبايعة احد اقربائه ، وقد قام هذا القريب بإفشاء سر المؤامرة ودل الحكم على المتآمرين ، فالقى القبض عليهم ، وكان عددهم اثنان وسبعون رجلا واعدتهم جميعا جملة واحدة ، ثم اتقن سور قرطبة ، وحفر خندقها .

وجلب هذا الاعدام السكينة والهدوء ولكن إلى حين ، فقد لجأت عناصر الثورة الى المقاومة السلبية ، وكان فقهاء قرطبة وربضها على رأس هذه العناصر ذلك أنهم « انكروا عليه أشياء رابتهم فأرادوا خلعه » ، وأحدث هؤلاء الفقهاء « انشاد اشعار الزهد والحض على قيام الليل في الصوامع ، أعني صوامع المساجد وراوا ان يخلطوا مع ذلك شيئا من التعريض به مثل ان يقولوا : « أيها المسرف المتماذي في طغيانه ، المصر على كبره ، المتهاون بأمر ربه افق من سكرتك وتنبه من غفلتك » .

ولم يستطع الحكم تحمل هذا التعريض ، ولعله احتار في ايجاد السبيل لايقافه ، فلقد كان من الصعب التدخل في شؤون الصلوات ومنع الناس من التعبد ، ويبدو انه القى القبض على بعض المحرضين مما أدى إلى شحن الأجواء وتوترها .

وفي سنة ٢٠٢ هـ - ٨١٧ م تفجرت الثورة في الربض ضد الحكم وكانت ثورة عارمة ، ولئن كان من الصعب الحديث عن مؤثرات خارجية حرضت عليها ، فمن السهل وصف نتائجها على مناطق خارج الاندلس . وحاول ثوار الربض قطع الجسر الواصل بين الربض وقرطبة ، وبعد جهد طويل مضى استطاعت قوات الحكم دفعهم عن الجسر ثم تمكنت بعض هذه القوات من الالتفاف حول الثوار ، فهاجموا مساكنهم وأهليهم ، وبلغ خبر ذلك الثوار فتفرقت عناصرهم عائدة نحو بيوتها للدفاع عنها ، وهنا طبقت قوات الحكم

على الربض وطوقته ، وجرى حمام دم هائل ، قتل فيه آلاف من العشرين ألف الذين كانوا يسكنون الربض حسب بعض التقديرات ، وعندما تم اطفاء الثورة ، فرق الحكم ما بقي من عناصر الثورة على اقاليم الأندلس ، كما سمح للقسم الأكبر بمغادرة الأندلس إلى المغرب حيث أسهموا في تأسيس مدينة فاس وفي المغرب لم يستطع جميع هؤلاء العيش طويلا ، فتوجه قسم منهم نحو الاسكندرية « فملكوها وذلك في أول ولاية الرشيد ، وسطوا بأهلها سطوة منكزة » ، وقامت الدولة العباسية بتوجيه واحد من كبار قادتها إلى مصر ، منعهم من الاستيلاء على مصر وحصرهم في الاسكندرية ، وتفاوض معهم بعد ذلك على ترك الاسكندرية على أن يزودهم بالسفن والمؤن والسلاح ويدعهم يذهبون حيث شاءوا ، وغادروا الاسكندرية ، وتوجهوا نحو جزيرة كريت فاستولوا عليها ، وأقاموا فيها حكما عربيا استمر قرابة القرن والنصف حيث قام في سنة ٢٥٠ هـ - ٩٦١١ م الامبراطور البيزنطي نفقور فوقاس بمهاجمة كريت وانتزاعها من العرب .

لقد تم الاستيلاء على كريت سنة ٢١٢ هـ - ٨٢٧ م ، وكان الحكم قد توفي منذ عدة سنوات ، أي في سنة ٢٠٦ هـ - ٨٢٢ م ، وكانت ثورة أهل الربض آخر ما واجهه من مخاطر داخلية ، وبعد وفاته خلفه ابنه عبد الرحمن .

وسلفت الإشارة إلى التجاء عبد الله عم الحكم إلى بلاط شارلمان وإلى إخفاقه ، لكن هذا الحدث لم يكن خاتمة المطاف في العلاقات مع الفرنجة ومع حكام جليقية ، فقد قام الملك الفونسو (أدفونش) ملك جليقية بحملة ضد لشبونة وأسر جماعة من المسلمين ، وفي سنة ٨٠٠ م ، السنة التي كان شارلمان يستعد فيها في روما لنيل تاج الامبراطورية أعلن لويس بن شارلمان عن نيته في انتزاع برشلونة عاصمة كتالونية في شمال اسبانية من المسلمين ، وبالفعل حوصرت هذه المدينة وقطعت المنافذ إليها لمنع النجدة من الوصول إليها ، وبعد حصار طويل ودفاع مستميت استسلمت برشلونة سنة ٨٠١ م

بعدما بقيت بأيدي العرب تسعين سنة ، وعلى الفور حولت مساجد المدينة إلى كنائس حسب قاعدة حرب الاستغلاب وأرسل لويس إلى أبيه ببعض الغنائم والأسرى ، والمثير للانتباه أن المصادر غير العربية تذكر أنه في السنة التي استولى فيها الفرنجة على برشلونة استقبل شارلمان سفارة من هارون الرشيد ، الخليفة العباسي الشهير ، وتحدثت المصادر عن تحالف فرنجي - عباسي ضد الحكم الأموي في الأندلس ، قابله تحالف أندلسي بيزنطي ضد العباسيين والفرنجة معا . ومفيد أن نذكر أنه مع قيام الحكم الأموي بالأندلس أنشأ عبد الرحمن الداخل عدة دور لصناعة السفن ، وما لبثت الأندلس أن امتلكت أسطولا قويا للدفاع عن سواحلها وللنشاط داخل البحر المتوسط ، ففي أيام الحكم هاجم الأسطول الأندلسي جزيرة سردينية سنة ١٩٣ هـ / ٨٠٨ م ثم هاجم سواحل بروفانس وجزيرة كورسيكا (٢٠) .

## عبد الرحمن الثاني

وكان عبد الرحمن الثاني هذا في الثلاثين من عمره ، وعندما تسلم الحكم «ألفى الملك قد مهد ووطد ، فخلا بلذاته وانفرد بشهواته ، فكان كداخل الجنة التي جمع فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين » .

لقد قطف عبد الرحمن ثمار نتائج التحول الحضاري الذي بدأ في عهد أسلافه ، فنعم بالاستقرار ونعمت الأندلس بقبسط كبير من الأمن والازدهار ، وفي الواقع باشر عبد الرحمن الحكم في الأندلس في أيام أبيه الأخيرة التي قضها بالمرض ، وكان انسانا متحضرا ، ورجلا ليئا ، طيب الأخلاق مرنا ، كما كان عالي الثقافة ، يجيد قرص الشعر ، ويمكن القول أنه قد تم في عصره التحول السياسي الذي بدأ مع عبد الرحمن الأول ، وابتغى القضاء على العصبية القبلية وإقامة الوحدة حول شخصية الأمير .

ولم يخل عصر عبد الرحمن الثاني من بعض الثورات ، إنما لم تكن أي من هذه الثورات بدرجة ما حدث أيام أبيه ، ولعل من أبرز دلائل الرفاه والازدهار في عصره قيام حركة عمرانية كبيرة في الأندلس في قرطبة وغيرها .

وفي زمن عبد الرحمن الثاني استقرت حدود الأندلس ، وبنيت أماكن دفاعية على هذه الحدود ، واهتم عبد الرحمن بتحصين شواطئ الأندلس ، لأن عصره كان عصر نشاط شعوب الشمال (الفايكنغ) ، كما اهتم بإنشاء أسطول خاص بالأندلس .

وقام عبد الرحمن بإعادة بناء الهيكل الإداري لدولته ، فعدد مناصب الوزراء وجعل لكل وزير وظيفته الخاصة ويومه المحدد الذي يقابل به الأمير ، وشعر عبد الرحمن الثاني انذاك أنه من القوة بمكان سمح له بالتدخل في شؤون المغرب .

وفي زمن عبد الرحمن شهدت الأندلس نشاطا فكريا كبيرا خاصة

في مجالات الفلسفة والدين وعلم الكلام ، ولعل من أبرز الشواهد على رقي بلاط قرطبة وشهرته أن زرياب ، مغني الأمين ، ترك بغداد إثر مقتل الأمين ، ووفد على أمير قرطبة ، الذي استقبله بحفاوة بالغة وأكرمه خير أكرام

وكان الامبراطور شارلمان قد توفي سنة ٨١٤ م ، وخلفه ابنه لويس الثاني ، الذي افتقر الى مؤهلات أبيه وحزمه ، لهذا فان عرى الامبراطورية التي شيدها شارلمان بعد جهود مضنية شرعت بالتفكك ، وكان لهذا اثره بالنسبة للضغط الفرنجي على الأندلس وإنفازة وتأثيره

فقد بدأ المسيحيون من سكان الشمال الاسباني يشكون من تعسف التسلط الفرنجي فثاروا ولقوا التأييد من قرطبة ، وبالمقابل حاول لويس الانتقام فانتهاز قيام ثورة في ماردة فأرسل إلى سكانها يقول : «باسم الرب وباسم منقذنا المسيح ، نحن لويس بعناية الرب امبراطور ، الى القساوسة وإلى شعب ماردة تحية باسم مولانا المسيح

بلغتنا محنتكم وما تحملتموه على يد عبد الرحمن الذي لم ينفك عن اضطهادكم وعن الطمع في ثرواتكم ، انه يصنع مثلما كان يصنع معكم أبوه (أبو العاصي) الذي كان يريد أن يرغمكم على دفع مبالغ غير مستحقة من المال ، والذي جعل من اصدقائه اعداء ومن الطائعين ثوارا ، إنه يريد أن يحرمكم من حريتكم ويرهقكم بالضرائب من مختلف الأنواع ويهينكم بجميع الطرق ، ولكنكم لحسن الحظ قمتم برد ظلم ملوككم وعدوانهم بشجاعة ، ولقد قاومتم ببسالة وحشيتة وجشعه ، وهذا الخبر وصل إلينا من مختلف المصادر ، ونتيجة لذلك اعتقدنا أن من الواجب كتابة هذه الرسالة لمواساتكم ، وأحثكم عل مواصلة النضال الذي بدأتونه من أجل الدفاع عن حريتكم ، وبالنظر إلى أن هذا الملك المتوحش عدونا بقدر ما هو عدوكم ، فإننا نقترح عليكم التعاون والتنسيق لمحاربة ظلمه ، ونحن ننوي أن نرسل في الصيف القادم بعون الرب ، جيشا ليعبر

جبال البرينيز ونضمه تحت تصرفكم ، وإذا وجه عبد الرحمن جيشه إليكم ، وحاول هذا الجيش الزحف عليكم فإن جيشنا سيقوم بتحركات واسعة لصرفه عنكم ، ونحن نصرح أنكم إذا خلعتم طاعته وأعلنتم طاعتنا فسوف نرد إليكم حريتكم التي كنتم تتمتعون بها من قبل دون أن تمس ، وإننا لن نفرض عليكم أقل ضريبة ، ولكم أن تختاروا القانون الذي تودون العيش في ظله ، وسنعتبركم أصدقاء يريدون أن يشاركونا في الدفاع عن امبراطوريتنا ، ندعو الرب أن يحفظكم في صحة وعافية »

والملت للانتباه أنه على الرغم من توجه لويس بالخطاب إلى رجال الدين المسيحي في ماردة لم يكن في مقدوره توجيه تهمة للتعصب ومنع الحريات الدينية إلى المسلمين ، علما أن الفرنجة كانت هذه سياستهم والاسبان في حروب الاستغلاب ، وأمضى أهل ماردة ثلاث سنوات في الثورة على قرطبة ، وكانوا يأملون في وصول النجدة التي وعدهم بها ملك الفرنجة ، وعندما لم يصل منه أية قوة استسلموا وفتحوا أبوابهم لجيوش قرطبة .

وتردت الأوضاع في امبراطورية لويس النقي وتهيأت الفرص أمام المسلمين لاسترداد ما فقدوه ، لكن طاقات الأندلس لم تكن لتسمع وحدها بذلك ، لا سيما إذا ما ذكرنا استمرار العلاقات التحالفية ما بين الفرنجة والعباسيين ، وقد ساعد على تسهيل هذه العلاقات قيام حكم الأغالبة في إفريقية (تونس) منذ أيام الرشيد .

وتحدثت المصادر الفرنجية عن علاقات تجارية ما بين مصر وسورية من جهة وامبراطورية الفرنجة من جهة ثانية ، وأنه وصل في سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م سفارة مكونة من ثلاثة أعضاء ، أرسلهم الخليفة المأمون الى فرنسة ، وقد حمل هؤلاء الرسل هدايا إلى امبراطور الفرنجة كان من بينها اقمشة حريرية وعطور

لقد قام المسلمون أيام عبد الرحمن الثاني بعدة غزوات برية لأراضي مقاطعة بروفانس واستولوا لبعض الوقت عن طريق البحر على مرسيليا، غير أن غزواتهم لم تكن منظمة وشاملة ، بل عابرة ،

وكان من بين اسباب ذلك ما تعرضت إليه الأندلس من مشاكل بعد وفاة عبد الرحمن الثاني

ففي سنة ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م توفي عبد الرحمن الثاني ، وكان عمره اثنتان وستون عاما وقد خلف من البنين الذكور خمسة واربعين ومن الأناث ثلاثا واربعين ، وبعدهما توفي خلفه ابنه محمد الأول ، وبوفاته انتهت مرحلة من مراحل تاريخ الأندلس (٢١) .

## من الامارة الى الخلافة

عندما توفي عبد الرحمن الثاني خلفه ابنه محمد بن عبد الرحمن ، وكان شابا ، ذلك انه ولد سنة ٢٠٧ هـ / ٨٢٣ م ، وكانت امه ام ولد اسمها بهير ، وعندما كان عبد الرحمن الثاني حيا وعند وفاته أوجت المظاهر الخارجية للدولة بأنها كانت تنعم بالقوة والاستقرار ، لكن الحوادث التي وقعت بعد وفاته برهنت على أن هذه الصورة كانت خداعة ، وأن بناء الدولة كان متماسكا لكن بروابط ضعيفة ، وكان فقط ينتظر حدوث بعض الأزمات الحادة لتعصف بهذا البناء ولتأتي عليه .

وحين يفحص المرء تاريخ الأندلس بعد عبد الرحمن الثاني يجد فترة مميزة حكم فيها ثلاثة أمراء ، واحدا تلو الآخر ، وكانوا :

١- محمد الأول : ٨٥٢ - ٨٨٦ م

ب - المنذر : ٨٨٦ - ٨٨٨ م

ج - عبدالله : ٨٨٨ - ٩١٢ م

فبنهاية فترة هؤلاء الأمراء أطلت الأندلس على عهد جديد ، وهو عصر الخلافة والوصول إلى ذروة القوة والمجد والحضارة ، وشهدت الأندلس في عصر هؤلاء الأمراء عددا من الثورات ، ولقد سارت هذه الثورات على المنحنى نفسه الذي انتحته الحركات الثورية منذ عهد الحكم الربضي ، أي أن الثورات قامت في المدن ومن قبل سكان المدن ، وقامت هذه الثورات لأسباب اجتماعية وسياسية واقتصادية وغير ذلك ، ذلك أن سكان المدن كانوا غير راضين لسبب أو لآخر ، وكان التعبير عن عدم الرضى يتم بالثورة ضد السلطة المركزية ، ومع وضوح أسباب الكثير من الثورات ، ونيلها الكثير من التأييد نراها تخفق في النهاية لأنها عجزت عن تقديم أفكار أصيلة يمكن أن تحل محل أفكار الوضع القائم والنظام الحاكم ، والعجز في تقديم مثل هذه



الأفكار وانعدام البرامج الواضحة الطويلة وسم الثورات بأنها ما كانت إلا ردات فعل لبعض الأمور استغلّت من قبل بعض الشخصيات ذات المطامح الواسعة ، وقبل نهاية القرن التاسع للميلاد ظهر على مسرح أحداث الأندلس عدد من الشخصيات الطموحة التي استفادت من عدم الرضا الشعبي ، واستغلته لمآربها في سبيل إقامة حكومات مستقلة أو نصف مستقلة عن قرطبة .

ويبدو أن أول أعمال التمرد ضد السلطة المركزية قد بدأت في مناطق الثغور ، خاصة مناطق الثغور الجنوبية والجنوبية الشرقية ، وساعد على ذلك وضع الثغور البشري والعسكري ، والجغرافي ، فمن الناحية البشرية كانت مناطق الثغور كثيفة السكان ، كما كان سكانها أخطا ، صلاتهم أكثر متانة وتفاعلا مع الجانب الأوربي أكثر من الجانب المسلم من البلاد ، ثم إن هذه المناطق كانت من الناحية العسكرية حصينة ، فيها المنعة والسلاح والجند المدرب ، يضاف إلى هذا أن وضع الثغور العسكري كان يمنح بشكل دائم ، حكام الثغور صلاحيات استقلالية واسعة وكبيرة ، وغالبا ما كان قادة الثغور أفراد أسر توارثت السلطة واحدا تلو الآخر ، ويرى بعضهم أن نظام ثغور الأندلس تأثر بشكل واسع بالنظام الإقطاعي الأوربي وهذه مسألة تحتاج إلى بحث مفصل ، وسنفعل شئنا من هذا بعدما نبين أن منطقة الثغور في الأندلس كانت مقسمة إلى ثلاثة أقسام هي الثغر الأعلى ، ويبدأ في الشمال الشرقي بمدينة سرقسطة ، ثم الثغر الأوسط ويشمل منطقة طليطلة ، وأخيرا الثغر الأدنى و كانت مدينة ماردة مركزا له ثم حلت محلها مدينة بطليموس وكانت أشهر أسر الثغور أسرة القسي ، وكانت في الثغر الأعلى وقد برز من هذه الأسرة عدد من الرجال كان أشهرهم موسى بن موسى . وقد بدأ بتحركه الاستقلالي منذ أواخر أيام عبد الرحمن الثاني ، وبعد وفاة عبد الرحمن اعتبر نفسه مستقلا وبدرجة الملك الثالث للأندلس ، وكانت له علاقات زواج مع الأسر الإسبانية النبيلة ، وكان له أقرباء عدة من الأسبان وخاصة مع أفراد الأسرة التي كانت تؤسس مملكة ستعرف فيما بعد باسم مملكة نافار ، وكانت هذه

الأسرة تؤسس مملكتها حول مدينة بامبلونا ، وأعطت علاقات الزواج مع آل القسي هذه الأسرة الشيء الكثير من القوة في وقت كانت فيه في غاية الضعف ، وهنا لا بد لنا من وقفة نذير فيها أسس هذه العلاقات ، إذ كيف لنا أن نفهم قيام رابط زواج بين أسرتين واحدة مسلمة وأخرى نصرانية ، خاصة وأن الأسرة المسلمة لم تكن في مركز ضعف " لقد راق لبعضهم أن يفسر هذه العلاقات على أساس النظام الإقطاعي الذي كان سائدا آنذاك في أوربسة الكارلونية ، وفي ظل هذا النظام كانت هناك علاقة مصلحة بين سيد وتابع ، والمصلحة هي التي ربطت السيد بالتابع ، وعلى هذا اعتبر أثر الدين ومكانته في درجة أدنى من مصالح الطرفين ومنافعهما المتبادلة ، وعلى هذا الأساس يمكننا القول بأن تغيير الدين في تلك المنطقة لم يكن بشكل مشكلة خطيرة ، وبذلك نستطيع أن نفهم بعض ما أورده المؤرخين عن تحول بعض المسلمين إلى النصرانية .

وهذا الأمر يقودنا الى طرح سؤال أكبر هل سياسة الدولة الأموية في الأندلس كانت سياسة لا تعتمد الدين رابطا أساسيا يشد أزرها ، كما أنه ما مدى سعي هذه الدولة إلى نشر الإسلام " ولقد رأينا أن أمراء الأندلس قد سعوا نحو جعل شخصية الأمير محور الحياة في الأندلس والرابط الذي ترتبط به الأمة ، وفي الوقت نفسه لم يتخذ أمراء بني أمية القابا دينية كما لم يقوموا بالسعي الدائمي نحو إحاطة أنفسهم بهالة من القدسية كما صنع خلفاء بني العباس ، لذلك كثرت الثورات ضد أمراء قرطبة ، ذلك أنه عندما كان يحدث ما يعكر صفو العلاقة القائمة على العقد بين أمير قرطبة وأحدى الشخصيات حتى كان صاحب هذه الشخصية يسارع إلى نقض العقد وإعلان عدم الاعتراف بسيادة أمير قرطبة ، ويلاحظ أن عددا من أمراء قرطبة أدركوا خطورة الحال ، فعملوا من أجل إحلال رابطة الإسلام محل الروابط الأخرى ، فأحاطوا أنفسهم بعدد كبير من علماء الدين ورجالاته ، وأثر هؤلاء العلماء على سياسة الدولة وساعدوا على نشر الإسلام ، ولا شك أنهم هيأوا السبل نحو تبدل

الوضع السياسي في الأندلس بالتخلي عن لقب أمير وابداله بلقب إمام وخليفة .

وفي الوقت الذي بدأت فيه هذه السياسة ، قام بين صفوف الأسبان حركة معارضة دينية ، أو بالحري حركة إحياء ديني جديد ، واعتمدت هذه الحركة على ظهور عقيدة تعرف بعقيدة القديس جيمس كومبوستلا ، وكانت هذه العقيدة مسيحية بالأساس ، اعتمدت على افكار دينية ايبرية قديمة ، وكانت هذه تؤمن بالتوأم الالهي ، وهكذا اعتبرت هذه العقيدة جيمس اخا تواما للمسيح .

ولقد قدمت هذه العقيدة قوة إيمانية شديدة للأسبان ، ذلك أنهم اعتقدوا بأن الله ارسل جيمس مع مساعدة سماوية للأسبان في حروبهم ضد المسلمين ، وأنه حتما سينتصر الأسبان ، وقد اعتبرت هذه الحركة أساس القوة الروحية لحرب الاستغلاب الأسبانية .

وعجز أمراء قرطبة عن هزيمة موسى بن موسى القسي فظل سيد سرقسطة والثغر الأعلى حتى سنة وفاته في ٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م ، وحاول من بعده ثلاثة من اولاده ثم عدد من أحفاده الاحتفاظ بأملكه فلم يوفقوا كثيرا .

وفي الوقت الذي كانت فيه أسرة آل القسي صاحبة السيادة في الثغر الأعلى كانت أسرة الجليقي صاحبة النفوذ في الثغر الأدنى وظلت كذلك حتى استردت حكومة قرطبة قوتها زمن عبد الرحمن الثالث .

ومهما بلغت ثورات أسر الثغور من خطر فإن ذلك لم يعادل جزءا مما نجم عن ثورة عرفت بثورة ابن حفصون تفجرت أيام الأمير محمد الأول واحتاجت الى وقت مديد حتى قضى عليها ، وتمثل هذه الثورة احدى حركات جماعة المولدين في الأندلس ، ومع اننا سبق لنا وعرفنا هذه الجماعة ، لكن لا بأس من أن نقوم مرة أخرى بالتعرف إليها مع غيرها من جماعات المجتمع الأندلسي ، فعندما قام الفتح الاسلامي للأندلس ، أصبح مجتمع هذا البلد يضم : ( ١ ) العرب (٢) البربر (٣) السكان الأصليين ، ومع الأيام خاصة بعد تأسيس

الأسرة الأموية انضاف عنصر جديد من الرقيق الذي استخدم في الجيش وكان أبيض وأسود ، ولقد حدث تمازج بين العرب والبربر أو بين العرب والسكان الأصليين ، وجاء من هذه النماذج فئة جديدة عرفت بالأبناء ، ثم إن بعضا من السكان الأصليين اعتنق الاسلام ، وبعض تبني الثقافة العربية وبقي بعضهم الآخر على حاله ، ودعي الذين اعتنقوا الاسلام باسم المولدين ، كما دعيت الجماعة الثانية بالمستعربين ، وحينما يستعرض المرء أخبار الأندلس يجد أن كل جماعة من جماعات مجتمع الأندلس قامت بأكثر من حركة ، ولقد قمنا حتى الآن بالتعرف إلى حركات الجماعات العربية مع نشاط البربر وسندسعى للحديث عن حركات بعض الجماعات الأخرى ، وسنكتفي بحركة ابن حفصون كنموذج لأهميتها وشهرتها . وابن حفصون هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن شليم بن ..... ويعود به نسبه إلى إحدى أسر اسبانيا المحلية التي صارت أسرة نمية بعد الفتح الاسلامي ثم قام أحد أفرادها ولعله جعفر بتبني الاسلام .

وبدا ابن حفصون حياته بداية غير مرضية ، حيث كان رجل شر وعصبيات ، شارك في العديد من أعمال القتل والسلب ، مما جعل السلطات تقوم بملاحقته فاضطر إلى مغادرة الأندلس والهرب إلى المغرب ، وعاش هناك عدة سنوات ثم رجع إلى الأندلس وحل بجبل بيشتر ، وكان هذا سنة ٢٦٧ هـ - ٨٨٠ م ، ويوصف جبل بيشتر بالحصانة وتوفير الماء والأشجار والعديد من القلاع الحصينة فيه ، هذا وقد اختلف تحديد مكانه الآن ، وأقام ابن حفصون بهذا الجبل فترة وجيزة حيث ألقى القبض عليه وسيق إلى قرطبة فظل بها حتى سنة ٢٧١ هـ - ٨٨٤ م حيث هرب منها وعاد إلى بيشتر .

وكان ابن حفصون صاحب شخصية مميزة ، فقد تمتع بصفات الزعامة والقدرة على تجنيد الأنصار واصطناع الرجال وتأمين ولائهم ، وكان يعرف كيف يتحجب إلى أتباعه ، كما استطاع تأمين النظام والأمن في منطقته وبين صفوف أنصاره .

ولا نملك الآن معلومات عن مضامين أفكار ابن حفصون وشعاراته ، إنما نعلم أن حركته لاقت تأييدا شديدا من المولدين ، وبهذا فهي تذكرنا بثورات الموالي في المشرق ، ذلك أن الشبه شديد بين موالي المشرق ومولدي الأندلس .

ومع الأيام ازدادت ثورة ابن حفصون اتساعا ، وعجزت سلطات قرطبة وأخفقت في التصدي لها ، وإذا ما صدقنا ما كتبه بعض المؤرخين العرب ، نستنتج أن ثورة ابن حفصون كانت حركة وطنية إسبانية محلية ، مصبوغة بالصبغة الإسلامية ، ابتغت الانتقام من العرب ، وأرادت التخلص من حكمهم ، ومن هنا نجد لها تشبه حركات الموالي المشرقية التي تأثرت بأفكار الشعوبية ، هذا وإن عمليات الانتقام والتأثر تختلف عن عمليات الإصلاح الاجتماعي ، كل ذلك على الرغم مما تلقاه من تأييد ، لكن يحكم عليها بالافلاس والخسارة النهائية . وبالفعل استجاب كثير من الناس لدعوة ابن حفصون كما أوى إليه زعماء العصابات ، وكان يسلم زعيم كل عصابة حكم حصن من الحصون أو منطقة من المناطق التي دخلت في حوزته ، وكان يحسن فيه التعامل مع الناس وأرضاء جميع الرغبات ، ولقد ترك زعماء العصابات أحرارا وأعطاهم صلاحيات جمع المال والنهب كيفما شاؤا ، ولكن بما أن غالبية زعماء العصابات يتصفون بما يسمى «الشهامة» ، فقد استغل ابن حفصون هذه الناحية لحماية الأخلاق وعدم التعرض للنساء ، وكان صارما للغاية بالنسبة للنساء حتى يقال بأن المرأة كانت تسافر ، وهي محملة بالحلي والمتاع ، من حصن إلى آخر فلا يعترضها معترض .

وواتت ابن حفصون العديد من الظروف المشجعة ، كان أهمها الأزمات التي قامت في أواخر حكم محمد الأول ثم في عهد المنذر القصير ، فقد حكم المنذر قرابة العامين فقط ، وكان التبديل السريع في الأمراء وعدم استقرار السلطة داخل قرطبة من الأمور المشجعة والمساعدة لابن حفصون .

وكان ابن حفصون عندما يشعر بقوة وتماسك سلطة قرطبة ،

ينكمش ويتخذ موقف الدفاع ، وحينما كان يشعر بضعف هذه السلطة كان يمارس سياسة الهجوم .

و في عهد الأمير عبدالله ارتفع شأن ابن حفصون وازدادت قوته ، في حين ازداد فيه حال الأمير عبدالله ضعفا وتدهورا ، والذي ساعد على بقاء الحكم الأموي وسانده تحرك العرب الذين قامت بين صفوفهم ردات فعل شديدة ضد حركة المولدين الموجهة ضدهم ، فاتحد هؤلاء العرب ، وتجمعت قواهم حول الأمير ، فمتنوا سلطة قرطبة وساعدوها على البقاء ثم على التحرك نحو القضاء على ثورة ابن حفصون .

لقد حقق ابن حفصون نجاحات كبيرة ووصل إلى حالة كان بإمكانه أن يقضي بها على إمارة قرطبة ويقيم حكما جديدا فيها ، لكنه لم يقدم على ذلك ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنه لم يملك مر المطامح ما يدفعه لتسلم إمارة الأندلس ، ثم إن تركيب قواته وأعدائه وعدم وضوح خطط وعقائد ثورته ، وعجزها عن تقديم الحلول الدائمة ، وأخيرا لكن ليس آخر انعدام النظام العقائدي الهادف ، كان كله من المهالك التي أودت بثورته ، ذلك أنه لم يكتب لأي ثورة في التاريخ النجاح حين اعتمدت على رجال العصائب ذوي الأهواء الشخصية ، وتنجح الثورات عندما تعتمد على رجال مؤمنين بها ، ملتزمين بخطط واضحة لها ، وعاملين على تطبيق مبادئ معينة لها كما كان الحال بالنسبة للثورة العباسية

أما في حال ابن حفصون فقد ظل زعماء حركته من رجال العصائب ملتفين حوله ما دام بإمكانه تحقيق الربح والغنائم لهم ، ثم ما دام يتمتع بالقوة وخصمه ضعيف متفكك ، لكن مع أول بادرة ضعف وانقسام ، وضرب لمصالحهم ، أو اضرار بها كان العقد سينفطر ، وهذا ما حصل

فلقد بلغت ثورة ابن حفصون الذروة زمن الأمير عبدالله بن محمد ، وقام هذا الأمير بمراسلة ابن حفصون يطلب منه أن يقدم له الطاعة ، فرفض ، فراسله مرة أخرى طالبا منه تقديم الطاعة له شرط أن

يسمح له الأمير بأن يحتفظ بجميع الأراضي والأماكن التي كانت بحوزته ، ومرة أخرى رفض ابن حفصون وركب رأسه وتمادى في غروره وشططه ، وأخذ يعمل غاراته ويوجهها ضد قرطبة ، وجعل هذا الأمير عبدالله أسير قصره ومدينته ، وعندها لم يحاول ابن حفصون قطف ثمار ما حققه .

وفي سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩٠ م ينس الأمير عبدالله من الحال التي كان فيها ، وقرر أن يقوم بعمل انتحاري ضد ابن حفصون فجمع جيشا وقاده نحو منطقة عرفت ببلاي ، وهناك التحمت قواته بقوات ابن حفصون التي ركبها الغرور وحل بين صفوفها التناقض ، وحقق الأمير عبدالله في هذه الملحمة نصرا ساحقا ، كان له أثره المحول على حركة ابن حفصون ومستقبل تاريخ الأندلس ، فقد أخذت الحياة تدب من جديد في جسم الإدارة المركزية في قرطبة ، وتحسن من جديد وضع أمير قرطبة ، وأخذ عقد ابن حفصون بالانفراط ، فقد بدأ الكثير من أتباعه بالتخلي عنه ، حيث قامت سلطات قرطبة بشراء بعضهم واستدراجهم ، وعندما بدأ الضعف يحل بابن حفصون وضاعت به الأحوال ، تطلع نحو الحصول على مساعدات خارجية ، وكان أمامه أفريقية وأمراء الثغور وأوربة ، فاتصل بالأغلبة ومناهم بأن يدعو للخليفة العباسي ، لكنه لقي الأهمال وعدم الاستجابة وحاول الاتفاق مع آل القسي والتحالف معهم فلم يوفق ، كل هذا في الوقت الذي أخذت فيه أعداد كبيرة من المولدين بالتخلي عنه ، ونجحت قرطبة في تثبيت الثوار ، وضرب فئاتهم بعضها ببعضهم الآخر ، ووصل الضيق بابن حفصون إلى حال دفعه للعمل على الاستعانة بالمستعربين مع نصارى الأندلس ، فقام في سنة ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م بإعلان نصرانيته وردته عن الإسلام ، ومع أن ذلك أكسبه عطف بعض المستعربين وتأييدهم ، لكن جعله يخسر جميع المولدين وأعطى النريسة الكاملة لسلطات قرطبة لإعلان الجهاد ضده ، واستمر حكام قرطبة في إرسال الحملات ضده ومضايقته عسكريا ، وفي سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م حاول ابن حفصون أن يهاجم قرطبة فهزم ومزقت قواته ، واستمرت

الحمالات ضده ، فانترزت اراضيه قطعة تلو الاخرى ، وضعف شأنه وتضاءل خطره .

وفي سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م توفي الأمير عبدالله فخلفه حفيده عبد الرحمن الثالث الذي كان شابا في الحادية والعشرين أو الثالثة والعشرين ، فاستطاع عبد الرحمن هذا أن يصفي حركة ابن حفصون ، وأن يعيد الحياة والقوة والوحدة إلى جسم الأندلس ، وأن يقلب الإمارة إلى خلافة .

وفي سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م توفي ابن حفصون ، واحتفظ أولاده ببقايا ملكه الصغير مدة عشر سنوات حيث استطاع عبد الرحمن الثالث ، الذي سيعرف بالناصر ، أن يصفي هذه الحركة نهائيا (٢٢) .

ولئن كانت الصورة في الأندلس قبل وفاة الأمير عبدالله مضطربة وبدأت تسير لغير صالح الحكم الأموي هناك ، فإن الأوضاع في الشمال الأفريقي وحوض البحر المتوسط وفرنسا وسويسرا وإيطاليا قد شهدت تغييرات جمة سيكون لها جميعا انعكاساتها على عصر عبد الرحمن الثالث والعصور التي تلتها ، فقد كان العرب قد افتتحوا منذ أمد طويل كل من جزيرتي كريت وصقلية - الأمر الذي سنقف عنده في فصل مستقل - وكانت دولة الأغالبة قد زالت من أفريقية وحل محلها الخلافة الفاطمية بمشاريعها التوسعية التي لم توفر الأندلس من حساباتها ، وكانت دولة الأدارسة في فاس قد بدأت بالتلاشي ، ولذاقتصر حديثنا أولا عن نشاطات العرب في فرنسا وسويسرا ، وذلك قبل العودة إلى سياق الحديث عن عصر عبد الرحمن الثالث وإعلان الخلافة في قرطبة .

توفي الإمبراطور لويس الثاني سنة ٨٤٠ م ، فوقع صراع مرير بين أولاده من بعده وحروب طويلة كان لها أثرها المساوي على أوروبا ، وزاد من اضطراب أحوال أوروبا الغربية تعرض سواحلها وبعض مناطقها الداخلية لغزوات الفايكنغ المدمرة ، والذي يعزينا هنا هو استيلاء العرب على مقاطعة بروفانس الفرنسية ، وتوسعهم حتى ما بعد جنيف في سويسرا وإلى حدود ألمانيا أيضا ، وسادع الحديث



عن النشاطات العربية في جنوبي إيطاليا إلى حين البحث في افتتاح صقلية وما أعقب ذلك من أحداث .

دخل العرب إلى مقاطعة بروفانس عن طريق البحر ، وأغاروا على بعض المواقع فيها ، وخاصة على مرسيليا مع نهائية النصف الأول من القرن التاسع للميلاد ، لكن بعد هذا التاريخ شرعوا في تنفيذ خطة استهدفت الاستيلاء على المنطقة بشكل كامل .

والمثير للانتباه أننا لا نملك معلومات كافية في مصادرنا العربية بشأن هذا الموضوع وعلينا الاعتماد على الروايات الأوروبية ، ويبدو أن العرب الذين اجتأوا بروفانس لم يتلقوا توجيها حكوميا أو مساندة أو تغطية سلطوية ، ويفسر هذا طبيعة الأحداث والنتائج . في حوالي سنة ٨٨٩ م كانت بروفانس ودوفيني تخضعان لزعيم اسمه بوزون Boson ، ولم يكن من أسرة شارلمان ، ومع هذا حصل على لقب ملك ارل ، في أيام هذا الملك قام عشرون من الملاحين العرب على ظهر سفينة بالانطلاق من الأندلس ، وقد اضطرتهم عاصفة شديدة إلى الالتجاء إلى خليج غريما Grimaud ، وصعدوا إلى البر دون أن يعترضهم أحد ، وكانت هناك غابة كثيفة قرب الخليج ، وإلى الشمال منه امتدت سلسلة من الجبال الصالحة لبناء القلاع ، ويبدو أن هذا كان في كونتية نيس ، وقام على قرية هناك ثم أسسوا قاعدة لهم وأخذوا باستدعاء الأعوان من الأندلس وإفريقية ، وكثر عدد العرب ، وما لبثوا أن تحكموا بسأهم ممرات وحصون بروفانس ، وفي العقد الثاني من القرن العاشر شرعوا يشنون الغارات على سهول بيمونت ومنتفرات Montferrat ، وعندما سنقروا أخبار الحروب الصليبية سنجد أن بارونات مونتفرات كان لهم الدور المبرز فيها .

لقد غدت بروفانس كلها خاضعة للعرب ، ومن ثم غدت سويسرا مسرحا لنشاطاتهم ، وكان من بين المدن الفرنسية التي استولى عليها العرب مدينة غرينوبل Grenoble وهذه المدينة يسكنها

اقامة مؤسسة جامعية مبكرة فيها سيكون للعرب القادمين من  
الأندلس دورا عظيما فيها

واخذ الفرنسيون وسواهم يجمعون قواهم لاجراج العرب من  
سويسرا وبروفانس ، وحالفهم الحظ بعد وفاة عبد الرحمن الناصر  
خليفة قرطبة ، ففي سنة ٩٦٥ م تم اجلاء العرب من غرينوبل ،  
وكانوا حوالي سنة ٩٦٠ م قد اخرجوا من مضيق سان برنارد  
الجبلي ، وحدث في سنة ٩٧٢ م ان اسر العرب القديس مايول  
رئيس رهبان ديركلوني الشهير ، فاثار ذلك مشاعر المسيحيين  
وتجمعت قواهم واخذت تسعى لاجلاء العرب ، ولم تأت نهاية العقد  
الأول من القرن الحادي عشر حتى كان العرب قد فقدوا ممتلكاتهم  
الفرنسية وسواها ، ومع هذا لم تتوقف البحرية الأندلسية وغيرها  
عن الاغارة على شواطئ فرنسا حتى سنة ١٠٤٧ م ، اي حتى  
قبيل جيل واحد من مؤتمر كلير مونت ودعوة البابا أوربان الثاني  
للحروب الصليبية (٢٣) .

## عبد الرحمن الثالث وعلان الخلافة

عندما وصل عبد الرحمن الثالث إلى العرش كانت «الفتنة قد طبقت أفاق الأندلس والخلاف فاش في كل ناحية منها ، فاستقبل الملك بسعد لم يقابل به أحدا ممن خالفه أو خرج عليه إلا غلبه واستولى على ما في يديه ، فافتتح الأندلس مدينة مدينة ، وقتل حماتها ، واستذل رجالها ، وهدم معقلها ... حتى دانت له البلاد وانقاد له العباد ..»

لقد كان على عبد الرحمن أن يواجه المخاطر الداخلية للأندلس وأن يتصدى للمشاكل الخارجية التي جاء أشدها من إفريقية حيث قامت الخلافة الفاطمية ، وجاء ثانيها من مملكة ليون ، ومع ذلك فقد تمكن عبد الرحمن بقوة شخصيته ، ثم بطول المدة التي حكم فيها ليس فقط من القضاء على الثورات والفتن الداخلية ، وتوحيد الأندلس وابعاد المخاطر الخارجية ، بل أوصل الأندلس إلى ذروة المجد والرفاه والحضارة والقوة .

وعبد الرحمن هو ابن محمد بن عبدالله ، كان أبوه محمد قد قتله أخوه مطرف ، فقتله أبوه عبدالله به . وقام الأمير عبد الله بضم حفيده إليه ، وأخذ يعده منذ صباه لخلافته والحكم من بعده ، فكان يجلسه في مجلسه وكان يسكن قصره ، وبعد وفاة جده ببيع بالامارة وكان هدفه الأول بعد تسلمه لمنصبه إعادة إقامة الوحدة الداخلية للأندلس ، وفي سبيل ذلك قاد في السنتين الأول من حكمه عدا من الحملات كما وجه العديد وكانت هذه الحملات جيدة التنظيم والخطط ، وقد وجه بعضها ضد بعض مؤيدي ابن حفصون فأوقعت الهزيمة بهم ، كما قام في الوقت نفسه بمصالحة من أمكن مصالحته من هؤلاء المؤيدين ، ووضع عبد الرحمن القلاع والحصون التي استولى عليها في أيدي أمينة مخلصه له .

واستطاع سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م استعادة مدينة اشبيلية ووضعها مرة أخرى تحت الحكم المركزي لقرطبة ، وضعف مركز ابن حفصون ضعفا شديدا ، وبعد وفاته سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م تنازع اولاده من بعده فتمكن عبد الرحمن من انتزاع املاكهم قطعة تلو الأخرى حتى تم له القضاء عليهم نهائيا سنة ٩٢٨ م .

وخلال هذا كله أولى عبد الرحمن مناطق الثغور اهتماما شديدا وسعى نحو إعادة سيطرة قرطبة عليها ، وقام عبد الرحمن سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م باعلان نفسه خليفة ، وشجعه على القيام بهذا العمل ضعف الخلافة العباسية بالشرق ، ونجاح الاسماعيليين في المغرب وإعلانهم عن اقامة الخلافة الفاطمية ، وبعد قرابة عامين على اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة استطاع إعادة السيطرة على الثغر الأدنى ، ثم توجه بهيمته نحو طليطلة فحاصرها عامين واستولى عليها سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م ، بعد هذا توجه بأنظاره نحو الثغر الأعلى فتمكن من استعادته .

ويلاحظ المرء أن عبد الرحمن الثالث ، الذي لقب نفسه بالناصر بعد عامين من اتخاذ لقب خليفة ، استطاع خلال العشرين سنة الأولى من حكمه إعادة توحيد الأندلس ، وقد استهلك هذا جل نشاطه ووقته ، ومع ذلك نجده خلال هذا الوقت لا يغفل الحرب ضد النصارى على الأخص في مملكتي نافار وليون .

وكانت هذه الممالك قد انتابها الضعف بعد تمزق الامبراطورية الكارلونية ( امبراطورية شارلمان ) ، وفي البداية استطاع عبد الرحمن أن يوقف نشاط النصارى ضد الأندلس ، ونحن حين نتحدث عن مملكة ليون .... نقصد بذلك المملكة التي شملت منطقة اشتورش ..... التي وقعت في أقصى الشمال الغربي لشبه الجزيرة الايبيرية ، وكان ملك ليون منذ سنة ٩٣٢ م حتى سنة ٩٥٠ م يعرف برنميزر ..... ، وتصدى رنميزر هذا لحملات عبد الرحمن ضد مملكته ويذكر أنه انتصر عليه انتصارا ساحقا سنة ٣٢٧ هـ / ٩٣٩ م مع أن جيش عبد الرحمن ضم آنذاك حوالي المئة

الف مقاتل ، وعلى الرغم من هذا فإنه لم ينجم عن هزيمة عبد الرحمن نتائج كبيرة ، فقد انشغل رزمير بمشاكل داخلية مما مكن عبد الرحمن من استعادة قوته ونشاطه ، وبعد وفاة رزمير سنة ٣٣٩ / ٩٥٠ م أضعفت الخلافات الداخلية الدول النصرانية ، فازداد نفوذ عبد الرحمن عليها ، وتحول هذا النفوذ فيما بعد إلى اعتراف بالولاء وقبول بالتحكم ودفع الجزية •

ويمكن القول إنه منذ منتصف القرن العاشر للميلاد وحتى نهايته سيطر المسلمون لأول مرة تماما على جميع أجزاء شبه الجزيرة ، وعلى الرغم من ذلك لم يستطع المسلمون الاحتفاظ بما سيطروا عليه ، فقد جاءت سيطرتهم على أطراف الجزيرة قهرا وليس فتحا ، ذلك أن المسلمين لم يستوطنوا أراضي الممالك النصرانية في الأطراف ، وهكذا بقي حكام هذه الممالك تابعين لقرطبة القوية مستعدين للعمل ضدها عندما تسنح الفرصة ، ولم يستقر العرب في الأراضي الشمالية لشبه الجزيرة الايبيرية ، لعدم وجود الرغبة في سكنى المناطق القريبة من فرنسا ، لصعوبة العيش في هذه الأراضي ، ولعدم وجود المكاسب ولطبيعة المناخ الصعبة ، والعرب كما هو ملاحظ أحبوا سكنى المدن الكبيرة ذات المناخ المتوسطي ، واستقر بعض البربر في هذه المناطق ، لكن صعوبة الحياة الجبلية ووجود الخطر الدائم دفعاهم الى الانسحاب نحو داخل شبه الجزيرة •

ولم يقتصر نشاط عبد الرحمن على الاندلس فقط بل أخذ بالتوسع في شمال افريقية ، فشحج على الثورة ضد الخلافة الفاطمية ، ونجح بعد بذله لبعض الجهد في السيطرة على أجزاء من المغرب الأقصى ، وفي زمن المعز لدين الله الفاطمي ( ٣٤١ - ٣٦٥ هـ / ٩٥٣ - ٩٧٥ م ) استطاع قائده جوهر الصقلي استرداد معظم أملاك قرطبة ما عدا طنجة وسبته ، وبقي الحال هكذا حتى وفاة عبد الرحمن الثالث ذلك أن الفاطميين انصرفوا نحو مصر وشغلوا بمشاغل الشام والمشرق فضعف نفوذهم

في المغرب ، ومع هذا كان للصراع الفاطمي - الأندلسي على المغرب أثاره الحضارية والثقافية مثل السياسية وأكثر ، فازدياد أهمية المغرب الأقصى كان له بعض انعكاساته على الصحراء الكبرى وقبائلها ، وهذا ما سنرصده في قيام حركة المرابطين ، ودور الأندلسيين في إدارة المرابطين ثم دور المرابطين في الأندلس وتحويلهم هذه البلاد الى ولاية مغربية •

ومن الواضح ان اتخاذ عبد الرحمن الثالث للقب الخلافة له علاقة واضحة بظهور الفاطميين ، وتسمية نفسه بلقب الناصر لدين الله له معاني الرد على الفاطميين ، ولقد ساعد هذا ثوار إفريقية وأعطاهم الفرص والمجال للتحرك •

وبصرف النظر عن كل هذا فإن نجاحات عبد الرحمن وتوسعه الامبراطوري مع اتخاذه لقب الخلافة قد فرض عليه اوضاعا جديدة وقاده نحو الابهة والأخذ بمظاهرها من بناء ورسوم ، فالخليفة غير الأمير ، صار عليه الاحتجاب والتعالي واتخاذ الحرس والسير بالموالك الفخمة ، وبالوقت نفسه ايكال الأمور الى رجال الإدارة وعدم مباشرة الأعمال بنفسه ، وهنا ازدادت قوة الإدارة ، مع قوة الجيش المحترف ، ذلك أن روح الجهاد كانت قد خبت منذ زمن وكادت تختفي وحل محل المتطوعة جند من المرتزقة والعبيد ، ومع ازدياد قوة الإدارة والجند تهيأت الفرص لاضعاف قوة الخليفة وانتقاص نفوذه ثم حبسه في قصره والتحكم به ، ولما جاء اتخاذ لقب الخلافة متأخرا وحديث أنه لم يقرن بدعاية دينية طويلة مثلما حدث بالمشرق مع العباسيين ، فإنه حينما مرت خلافة الأندلس بما مرت به خلافة بني العباس من التحكم والحجر على الخلفاء نجد أنه سهل القضاء على الخلافة الأموية ، وصعبت إزالة الخلافة العباسية لأنها نالت صفة القدسية والشرعية المرتبطة بالسماء •

واستطاع الناصر خلال النصف قرن الذي قضاه في الحكم ان يوطد أركان الإدارة في قرطبة وأن يقطف ثمار ما صنعه من أمن واستقرار في الأندلس ، ولقد عاشت الأندلس نزوة مجدها أيامه ثم

أيام ابنه الحكم التي كانت امتدادا لأيام الناصر ونتيجة مباشرة لما تحقق فيها .

ووقع الناصر سنة ٣٤٩ / ٩٦٠ م مريضا وظل المرض يلزمه حتى توفي سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م ، وعقب وفاته خلفه ابنه الحكم الثاني . (٢٤)

## الحكم الثاني

لقد جاءت خلافة الحكم الثاني ، الذي عرف بالمستنصر بالله ، استمرارا لخلافة أبيه ونتيجة لها ، فقد استمرت الأحداث تسير على المناحي نفسها ، ففيما يتعلق بالثغور تابعت قرطبة السيطرة على شؤونها وشؤون ممالك ليون ونافار كاستلا ، وحالت دون هذه الممالك ودون التحرك نحو الاستقلال .

واهتم الحكم بأسطول بلاده خاصة من أجل حمايتها من غزوات شعوب الشمال ( الفايكنغ ) ، كما تابعت سلطات قرطبة التدخل في شؤون المغرب والصراعات من أجل السيطرة فيه بين قوى كانت تابعة للإدارسة وأخرى للخلافة الفاطمية وسواها .

ولعل أهم الانجازات التي تمت أيام الحكم المستنصر تلك التي تعلقت بالجوانب الثقافية ثم الاقتصادية والعمرانية ، فلقد كان الحكم مغرما بالعلم ، شغوفاً بجمع الكتب ، له عناية فائقة بالعلماء ونشر الثقافة بين عامة الناس وخاصتهم ، استطاع أن يكون مكتبة ضمت بين خزائنها من الكتب ما لم تضمه مكتبة أخرى سواء أكان ذلك من ناحية الكم أو النوع ، وجاء إلى بلاطه عدد من علماء المشاركة كما نبغ في هذا البلاط عدد كبير من العلماء ، وكان من أبرز علماء المشاركة القالي صاحب الأمالي ، ويمكن القول بأن الفكر الأندلسي شبه المستقل والمتميز عن الفكر المشرقي بدأ يتزعزع زمن الحكم ، ونمت الحركة العمرانية زمن الحكم ، ولعل أهم المنجزات العمرانية التي تمت في عصره ، تلك التي أقيمت في قرطبة ، وفي مسجدها بالذات .

وكانت أبرز الشخصيات السياسية والعسكرية أيام الحكم وزيره وحاجبه جعفر بن عثمان المصحفي ثم قائده غالب بن عبد الرحمن



وفي زمن الحكم كان ابتداء ظهور محمد بن أبي عامر ثم ارتفاع شأنه .

كما ازدادت أيام الحكم أهمية رجال الدين ، وعظم تأثيرهم على مجرى الأحداث ، وتوفي الحكم سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ، وعندما مات كانت الخلافة الأموية في ذروة قوتها ، لكن أحداثا كثيرة ابتدأت ساعة موته وتعلقت بمسألة الحكم من بعده ، كان لها تأثيرا مفاجئا ومحولا على مستقبل هذه الأسرة وبالتالي مستقبل الأندلس السياسي (٢٥) .

## هشام الثاني والاستبداد العامري

وجاءت وفاة الحكم بعد مرض الم به وأقعه مدة من الزمن عن مباشرة الأعمال بنفسه ، وقد ناب عنه أثناء مرضه وكفاه مؤونة الحكم وزيره المصحفي ولم يكن المصحفي هذا يرغب في الاحتفاظ بمكانته فقط بل كان يسعى لرفعها ، وعلى هذا الأساس بنى خطته في حال وفاة الحكم •

ولم يكن المصحفي صاحب المطامح الوحيد بين رجالات السلطة ، فقد كانت هناك قوى عدة منها غلمان القصر وخصيائه وكان هؤلاء صقالية الأصل ، وكان يؤيدهم العديد من أبناء جندسهم الذين كانوا يعملون في الجيش ويتسلمون قياداته ، وكان أبرز صقالية القصر يعرفان بفائق وجؤذر ، وأخفى جؤذر وفائق خبر وفاة الحكم عند حدوثه ، وأرادتولية الخلافة المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ، أخي الحكم ، حيث كان شابا يستطيع أن يباشر الأمور ، في حين كان هشام بن الحكم ولي عهده صبيا في الحادية عشرة من عمره ، وخطط جؤذر وفائق لقتل المصحفي وإعلان خلافة المغيرة بشرط أن يكون هشام بن الحكم ولي عهده •

وعندما علم المصحفي بأخبار هذه الخطة تحرك بسرعة ، يعاونه شاب كان في الثامنة والثلاثين من عمره ، وكان صاحب مواهب ومطامح واسعة ، وعرف هذا الشاب بابن أبي عامر ، وأرسل المصحفي ابن أبي عامر مع قوة من الجند الى دار المغيرة بن عبد الرحمن فقتله خبثا ، وهنا سهل تنصيب هشام بن الحكم خليفة ، وبقي المصحفي سيد الأندلس ، ولكن إلى حين ، واستطاع المصحفي في البداية الحد من نفوذ صقالية القصر وأثرهم ، وساعده في ذلك ابن أبي عامر ، وقد تم التخلص من الصقالية بالبطش وبالتامر معا ، ولما تم لابن أبي عامر تدبيره في الصقالية جعل يتوصل

الى تقلد جيش المملكة » فحقق ما صبا له ، واخذ يرقى في مصاعد السلطة والشهرة حتى وصل الغاية وتفرد بسيادة الأندلس ، ولعله من المفيد الاكتفاء هنا بهذا الموجز عن ابن أبي عامر لأنني سأعود للحديث عنه بشيء من التفصيل في مكان آخر .

لم تكلل محاولات دمج العناصر البشرية في الأندلس لانتاج مجتمع عربي واحد ، وعلى هذا ما أن الغيت الخلافة الأموية حتى تمزقت البلاد شر ممزق ، وظهر فيها أعداد لاتحصى وأنواع لاتعد من المغامرين والطامحين لنيل السلطة ، وانغرست في النفوس طبائع الفرقة وعادات التمزق ، ونادرا ما اصاخ الأندلسيون الى نداءات الوحدة وهجر الفتنة ، وباتت ساحات الأندلس لاتعرف غير الحروب والصراعات وأعمال التامر ، وأفاد من هذا الحال حكام اسبانيا النصرانية ، وزادوا من نشاط حركة الاستغلاب وانتزعوا من المسلمين المدينة تلو الأخرى وابتذوهم بدون رحمة ، ولا شك أن هذا كله انعكس على الأوضاع الاقتصادية العامة والخاصة لمسلمي الأندلس ، واشتملت اسبانيا النصرانية في الشمال على ثلاث ممالك هي : ليون ، ونافار ، وأراغون ، ومنذ مطلع القرن الحادي عشر للميلاد تقدمت نافار بين هذه الممالك ، ولايعزينا هنا الحديث عن ملوك نافار وسواهم ولا عن نشاطاتهم ، بل المهم الإشارة الى أن الفونسو السادس ( الفنش ) ابن فرناندو الأول ( ٤٦٥ - ٥٠٢ هـ / ١٠٧٢ - ١١٠٩ م ) ، استدعي لتسلم الحكم سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م بعد وفاة أخيه شانجة ، وكان انذاك ملتجئا الى مدينة طليطلة ، حيث امضى فيها تسعة أشهر ، وستكون هذه المدينة الحصينة أولى ضحاياه في معارك حرب الاستغلاب التي خاضها .

وحينما تمزقت الأندلس قام في كل مدينة من مدنها متغلب» وذهب اهل الأندلس من الانشقاق والانشعاب والافتراق الى حيث لم يذهب كثيرين من اهل الاقطار ، مع امتيازها بالمحل القريب والخطة المجاورة لعباد الصليب ، ليس لاحدهم في الخلافة ارث ، ولا في

الامارة سبب ، ولا في الفروسية نسب ، ولا في شروط الامامة مكتسب ، اقتطعوا الاقطار ، واقتسموا المدائن الكبار ، وجبوا العملات والامصار ، وجندوا الجنود ، وقدموا القضاة ، وانتحلوا الالقاب ، وكتبت عنهم الكتاب الاعلام ، وانشدهم الشعراء ، ودونت باسمائهم الدواوين وشهدت بوجوب حقهم الشهود ، ووقفت بابوابهم العلماء ، وتوسلت اليهم الفضلاء ، وهم ما بين محبوب ، وبربري مجلوب ، ومجدد غير محبوب ، وغفل ليس في السراة بمحسوب ، مامنهم من يرضى ان يسمى ثائرا ، ولالحزب الحق مغائرا ، وقصارى احدهم ان يقول : اقيم على ما بيدي حتى يتعين من يستحق الخروج به اليه ، ولو جاءه عمر بن عبد العزيز لم يقبل عليه ، ولا لقي خيرا لديه ، ولكنهم استوفوا في ذلك اجالا واعمارا ، وخلفوا اثارا وإن كانوا لم يبالوا اغترارا من معتمد ومعتضد ومرتضى وموفق ومستكف ومستظهر ومستعين ومنصور وناصر ومتوكل-----» (٢٦) .

وكان أهم دول الطوائف :

مملكة سرقسطة - الثغر الأعلى : بنو هود

إمارة قرطبة - وسط الأندلس : بنو جهور

مملكة طليطلة - الثغر الأوسط : بنو ذي النون

مملكة بطليوس - الثغر الأدنى : بنو الأفطس

مملكة إشبيلية - غربي الأندلس : بنو عباد

مملكة بلنسية - شرقي الأندلس : تداولها أكثر من حاكم

مملكة غرناطة - جنوبي الأندلس : بنو زيري

وقد تدهورت قرطبة التي كانت حاضرة الأندلس ودار الولاية والخلافة ، وتقدمت عليها وعلى سواها إشبيلية ، وحكمت إشبيلية من قبل أسرة بني عباد التي ادعت الانتساب الى ملوك الحيرة ، وتأسست الأسرة من قبل القاضي أبي الوليد اسماعيل بن محمد بن عباد ، الذي شهر بحزمه وقوته ، وقد توفي سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ م وورثه ابنه أبو عمرو عباد الذي تلقب بالمعتضد ، وكان المعتضد على

درجة كبيرة من الدهاء ، سعى الى توسيع ملكه بشتى الوسائل ،  
وصرف في هذا السبيل جهودا عسكرية وسياسية ومالية كبيرة ، لكن  
في سبيل الصالح الفردي المحض ، فهو استخدم طاقاته ضد اهل  
الاندلس ، لكنه تذلل لفرناندو الاول وذهب بنفسه الى معسكره  
ليترضاها ويطلب منه الصلح والمهادنة مقابل مبلغ كبير من المال ،  
وامضى المعتضد في الملك ثمان وعشرين سنة حيث توفي سنة  
٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م وخلفه ابنه ابو القاسم محمد الذي عرف بالمعتمد  
على الله ، وكان شاعرا مجيدا « من الملوك الفضلاء ، والشجعان  
العقلاء » اجتمع له من الشعراء واهل الادب ما لم يجتمع لملك قبله  
من ملوك الاندلس ..... ولي امر اشبيلية بعد ابيه وله سبع  
وثلاثون سنة ، واتفقت له المحنة الكبرى بخلعه واخراجه عن ملكه في  
شهر رجب الكائن في سنة ٤٨٤ « (٢٧) » .

واتسم جل ملوك دول الطوائف بالبذخ وتبديد الاموال والرعونة  
والصغار مع انعدام الشعور بالمسؤولية ، وقد تحدث ابن بسام في  
الذخيرة طويلا عن بعض هؤلاء الملوك ، وكان منهم المأمون بن ذي  
النون صاحب طليطلة ، فقد اراد المأمون يوما أن يبني قاعة خاصة  
به ، ارادها ان تكون على درجة لانظير لها من الجمال والأبهة ،  
ووقع اختياره على بناء ماهر فيه دل وصلف لتنفيذ هذه المهمة ،  
واستطاع هذا البناء ان يذل المأمون أكثر من مرة ، وبينما المأمون  
مهتم ببناء القاعة « اتفق اثناء ذلك أن ضربت خيل الطاغية فرنلند  
( فرناندو الاول ) على بلاد المظفر بن الأفطس ، وطئها وطأة محت  
رسومها ، واستباححت حريمها ، واجتاحت حديتها  
وقديمها - - - - - وأياست من البقاء ، وأذنت بشمول البلاء ، فأخبرت  
عن وزيره ابي المطرف بن مثنى انه كان يومئذ بمنزله بين الوجوم  
والاطراق ، وعلى نهاية الحذر والاشفاق ، إذ وردت رسل المأمون  
عنه تترى ، وهجمت عليه زمرة بعد أخرى ، فدخل عليه فوجده قد  
استشاط حنقا ، حتى كاد يتميز شققا ، فظن أن ذلك الضجر ، لما  
كان ورد به الخبر من ضرب الخيل على بلد المظفر ، واخفار الزمم ،  
وزلة القدم ، وانتهاك الحرم ، فطفق ابن مثنى يبسطه ويقبضه ،

تارة يسليه وتارة يحرضه ، وطورا يقول له : فيك الخلف مما فات ، ومرة يقول : قد ان لك ان تذكر على الطاغية هذا الافتيات ، فلما فهم منحى ابن مثنى منه ، اعرض عنه ، وقال : ألا ترى هذا الضالع الفساعلي الصانع - يعني عريف بنيانه - صبرت له واغضيت ، وفعلت به كيت وكيت ، فما زاد إلا تنغيصا للذتي ، واستخفافا بإمرتي وتصغيرا لشأني ، واجتراء على سلطاني « وحاول الوزير مداراته وتهوين الأمر عليه ، ثم خرج لمقابلة البناء ، فلم يأبه به ، وأخذ « يداوره ويداريه ، والصانع مقبل على شأنه ، مما أمره بالجلوس ، ولا زاده على التجهم والعبوس » ثم عاد الوزير إلى المأمون ووعد خيرا وخرج بعد ذلك من عنده وهو « لا يدري من أي الثلاثة يعجب : أمن اغترار ابن ذي النون وجهله ، أم افضاء الضرورة بنفسه إلى خدمة مثله ، أم من جراءة ذلك الصانع القصير اليد ، النزر العدد ، على ذل ابن النون ودله » .

قال ابن بسام : فتبارك من أحاط بالأشياء ، ولم يخف عليه شيء في الأرض ولا في السماء ومن جعل اليوم ذلك القصر العجيب بنيانه ، الهادم - كان - للدين والدنيا شأنه ، مربطا للأفراس ، وملعبا للأعلاج الأرجاس ، من رجال الطاغية أنفونش ابن فرذلند ، بدد الله شيعته « (٢٨) » .

لقد استجاب الله تعالى لدعاء ابن بسام فبدد قوى الفونسو السادس بعد ما كاد أن يلتهم الأندلس جميعا ويأخذها من ملوك الطوائف (٢٩) استجاب جل وعلا بأن أرسل المرابطين فحاضوا معركة الزلاقة وغيرها من المعارك فأخروا بذلك سقوط الأندلس عدة قرون ، وقد آن الأوان للحديث عن المرابطين وقيام حركتهم .